أبناؤنا .. سلسلة سفير التربوية

( ٢١ )

# طفلُكَ .. هبةُ اللهِ لكَ


تأليف

**أ. د/ عبد الغنى عبود**

أستاذ التربية المقارنة والإدارة التعليمية

بكلية التربية – جامعة عين شمس





رقم الإيداع : ٣٤٧٤ / ٩٧ الترقيم الدولى : ISBN: 977 - 261 - 510 - X

# تقديم

استطاع الإنسـان بالعلم أن يعرف الكثيـر والكثير عن الحـياة من حـوله؛ عن الأرض التـى يعـيش عليـهـا، وعن الكـون المحيط بهـذه الأرض أيضًا، مما يُفتَرض أن يجـعل حيـاته أكثر بهـجة، وأكـثر أمنًا واستقرارًا، بعد أن صار يعـرف الكثير – أيضًا – عن مسائل المرض والصحـة، وصار يملك من الأدوات والمعدات ما جـعله قادرًا – بـإذن الله – على أن يقـهر المرض، وعلى أن يتـجـنب الأسـبـاب المؤدية إليه – أيضًا – فيتقيها.

والعلم ذاته نعـمة من نعم الله الكبـرى على الإنسان، فـضَّله بها على سـائر المخلوقـات، فـاختـاره خليـفـة له فى الأرض، إلا أن العلم الصحيح علم يقود إلى الإيمان بالله، وإلا صار هذاالعلم زائفًا، يقود الإنسـانية إلى مـا تعانى منه اليـوم من تخبُّطٍ وإفسادٍ للحياة، حـتى صارت عديمة المعنى، ومن ثَمَّ صارت لا تسـتحق أن تُعاش، رغم ما حققه العلم فيها من رفاهية.

وهكذا صار الإنسـان فى حاجـة إلى وقفة مع نفـسه ووقـفة مع الحيـاة من حولـه، بعد أن صـارت تجرفه إلى مـا يخشـى هو عقـباه،

ليتمكن من السيطرة عليها، قبل أن يفلت زمامها من يده.

ولو أن الإنسان وقف مع نفسه هذه الوقفة المطلوبة، لوجد أن الحياة حلوة، وأن حلاوتها فى نفسه تنبُع منه هو، إذا هو عاد إلى ربه، وأحصى نعم الله - سبحانه - أو بعضها عليه، وشكره - سبحانه - على ما أنعم به عليه من نعم، فحينئذٍ يكون لحياته معنى، وسيكون لها طعم مختلف، يدفعه إلى معانقة الحياة.

ووقفتنا فى هذا الكتاب مع نعمة واحدة من النعم التى أنعم الله - سبحانه - بها علينا، وهى نعمة الأبناء، الذين صاروا فى عيون الكثيرين عبئًا على الحياة، مع أن الأصل أنهم بهجة هذه الحياة الدنيا وزينتها.

# الفصل الأول
# نعم لا تعد ولا تحصى

أن تحس بأنك تعيش فى نعمة، هو فى حد ذاته نعمة، لا يحظى بها إلا المصطَفَون من خلق الله، الذين آتاهم الله الحكمة، فمكَّنهم بها من أن يروا نعمة الله فى أنفسهم وفيما حولهم، وهداهم بعد ذلك إلى أن يشكروه – سبحانه – عليها، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه :

﴿ ولقد آتينا لُقمان الحِكمة أن اشكر لله، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن الله غنى حميد ﴾ [لقمان: ١٢].

وقوله تعالى :﴿ وإذ تأذَّن ربُّكم لئن شكرتم لأزيدنَّكم، ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾ [إبراهيم : ٧].

وقوله تعالى :﴿ ومن شكر فإنما يشكر لنفسه، ومن كفر فإن ربى غنى كريم ﴾ [النمل : من ٤٠].

وإذا كان شكر الله –سبحانه – على ما أنعم به على الإنسان هو طريق كل خير، فإن هذا الشكر هو الصراط المستقيم، الذى ندعو الله أن يهدينا إليه فى كل ركعة من ركعات كل صلاة نصليها،

حيث نقرأ فى سورة الفاتحة:

﴿ اهدنا الصراطَ المستقيم * صراطَ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ [الفاتحة : ٦، ٧].

ويهدينا ربنا إلى هذا الصراط المستقيم، بما ركَّبه فينا من حواسَّ نتعرف بها ما حولنا، وبما حبانا به من عقل، نميز به بين ما هو حق وما هو باطل، بهداية من الله؛ إذ من شأن الإنسان أن تضله حواسه بغير هذه الهداية، فلا يلجأ إلى الله إلا عند الشدة وحدها، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه:

﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجانبه، وإذا مسه الشر كان يئوسًا ﴾ [الإسراء : ٨٣].

وقوله تعالى :﴿ وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونأى بجابنه، وإذا مسه الشر فذو دُعاء عريض ﴾ [فُصلت : ٥١].

وقد ذكر ربنا – سبحانه – هذه النعم التى لا تُعدُّ ولا تُحصَى فى موضعين اثنين، يسهُل على الحواس أن تقع عليهما، هما: الأرض التى نعيش عليها ، وكياننا ذاته ؛ حيث يقول سبحانه :
﴿ وفى الأرض آيات للموقنين * وفى أنفسكم أفلا تبصرون ﴾

[الذاريات: ٢٠، ٢١].

وحول الأرض ، وما حولها ، دارت آيات كثيرة، تشير إلى ما أودعه الله – سبحانه – فيها من نعم وآيات، تدل على قدرة الخالق سبحانه، وعلى فضله على سكان هذه الأرض – وخاصة الإنسان – فى مثل قول الله سبحانه: ﴿ الذى جعل لكم الأرض فراشًا والسماء بناء، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقًا لكم ﴾ [البقرة : من ٢٢].

وقوله تعالى :﴿ وهو الذى مَدَّ الأرض وجعل فيها رواسى وأنهاراً، ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين، ويغشى الليل النهار، إن فى ذلك لآيات لقومٍ يتفكرون * وفى الأرض قطع متجاورات وجنات من أعناب وزرع ونخيل، صنوان وغير صنوان، يُسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض فى الأُكُل، إن فى ذلك لآيات لقومٍ يعقلون ﴾ [الرعد : ٣، و٤].

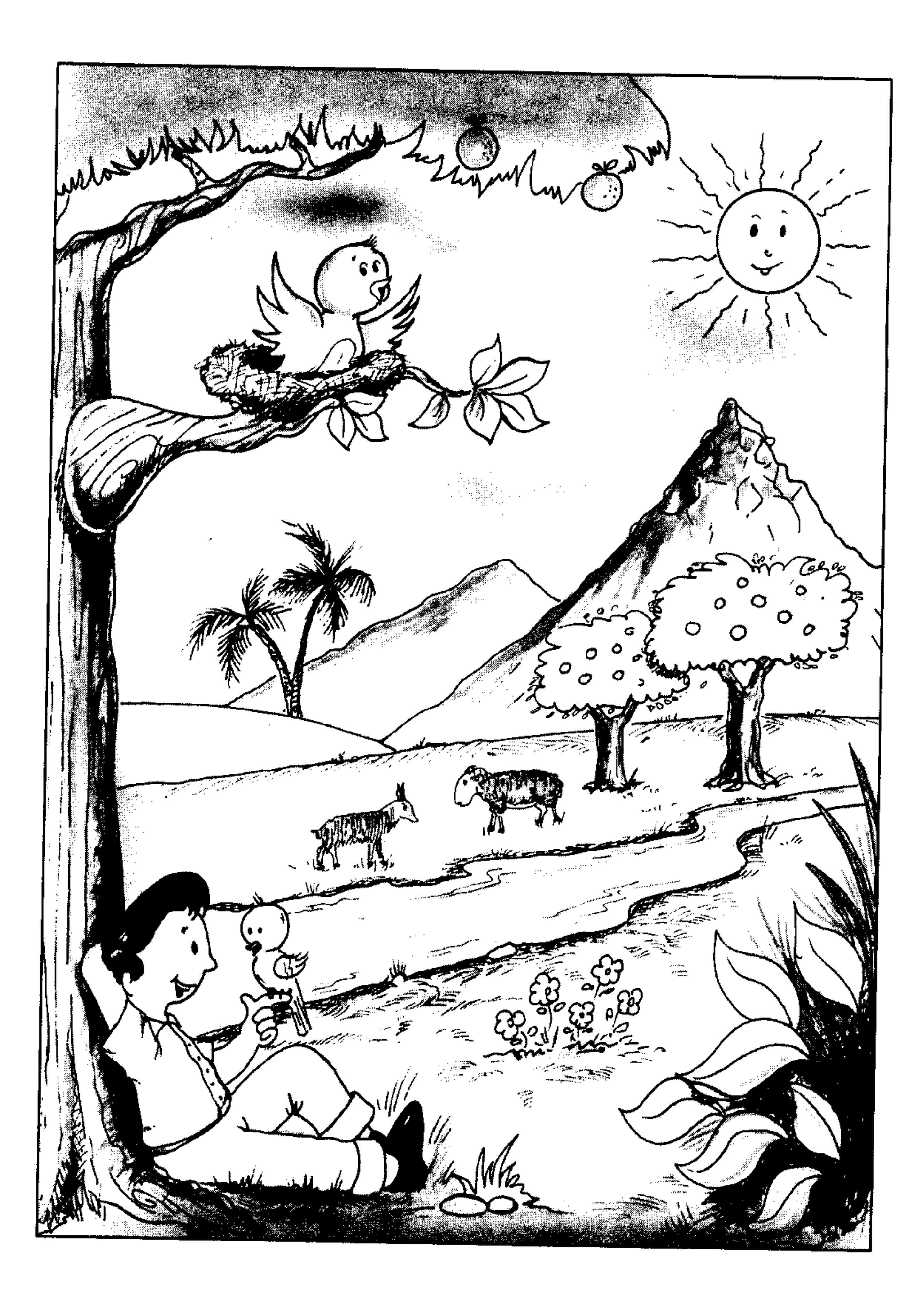
ولا يقف أمر نعم الله – سبحانه – فى الأرض على ظاهر ما ذكرته الآيات الكثيرة التى دارت حول الأرض وما حولها، وإنما يتعدى ذلك إلى ماوراء هذا الظاهر – أيضًا – من لؤلؤ ومرجان وحديد، ثم من معادن كثيرة، لا تُعدُّ ولا تُحصَى، يتم اكتشافها

واستخراجها كل يوم، مع تقدم العلم، وزيادة قدرة الإنسان على تسخير ما أودعه الله - سبحانه - من خيرات فى باطن هذه الأرض، لخدمة الحياة وتيسيرها علينا، حيث لا يكاد يوم يمر دون أن نسمع عن جديد فى هذا المجال أو نقرأ عنه، إما فى صورة خبر من أخبار العلم والإنجاز العلمى، أو فى صورة إعلان عن مُنتج جديد فى الصحافة والتليفزيون.

وكثيراً ما يرد ذِكر الأرض فى القرآن الكريم مرتبطًا بالسماء، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه :

﴿ الحمد لله الذى خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدِلون* هو الذى خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أنتم تمترون* وهو الله فى السموات وفى الأرض، يعلم سركم وجهركم، ويعلم ما تكسبون ﴾ [الأنعام : ١ - ٣].

**ولم نفهم إلا مؤخرًا - وفى هذا العصر تحديدًا - تلك العلاقة العضوية التى تربط الأرض بالسماء، بما فيها من نجوم وكواكب وأقمار، وتربط الأرض برب السماء والأرض.**



**وتصل بنا هذه العلاقة العضوية بين الأرض وعناصر الكون المختلفة إلى المحطة الثانية لنعم الله، وهى الإنسان ذاته، وما ركبه الله – سبحانه – فيه من إمكانات واستعدادات وطاقات، يستطيع بها أن يستثمر عناصر الكون تلك لصالح الحياة على الأرض ولصالحه،** لعله يشكر الله سبحانه، فيقول تعالى:

﴿... وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل : من ٧٨].

ولكن التجربة الإنسانية الطويلة على الأرض؛ تدل على أن الإنسان لا تقوده الطاقات والإمكانات التى أودعها الله – سبحانه – فيه إلى الخير دائماً، فهو قليلاً ما يشكر، كما عبَّر القرآن فى قول الله تعالى: ﴿ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلاً ما تشكرون ﴾ [السجدة : من ٩].

**ولأن الإنسان قليلاً ما يشكر؛ فإنه يستغل هذه الطاقات والإمكانات التى أودعها الله – سبحانه – فيه لتدمير الحياة، وتدمير الآخرين، وللبغى والعدوان؛ ومن هنا كانت النعمة الحقيقية التى أنعم الله – سبحانه – بها عليه هى نعمة هدايته، وإرسال الرسل**

**إليه؛ لترشيد خطواته على طريق الحياة، بتعليمه وتزكيته،** على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه: ﴿ كما أرسلنا فيكم رسولاً منكم يتلو عليكم آياتنا، ويزكيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة ، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون* فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون* ياأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبروالصلاة ، إن الله مع الصابرين ﴾ [البقرة: ١٥١ - ١٥٣].

وقوله تعالى :﴿ لقد منَّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين ﴾ [آل عمران : ١٦٤].

**لقد أثبت الإنسان أنه بما أُودع فيه من طاقات وإمكانات، قادر على الخير قُدرتَه على الشر، وقادر على التعمير قدرتَه على التخريب، وقادر على البناء قدرتَه على الهدم، بنفس ما رُكِّب فى نفسه من طاقات وإمكانات، وبنفس ما أودعه الله له فى الأرض من عناصر، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه : ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا* إنا هديناه السبيل إما شاكرًا وإما كفورًا ﴾ [الإنسان: ٢، و٣].**

ومن ثَمَّ كانت النعمة الكبرى التى أنعم الله بها على الإنسان، هى نعمة هدايته، وإرسال الرسل إليه ليحققوا هذه الهداية، مبشرين ومنذرين كما عبر القرآن الكريم فى أربعة مواضع، منها قوله سبحانه: ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده، وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان، وآتينا داود زبوراً* ورسلاً قد قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلَّم الله موسى تكليماً* رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وكان الله عزيزاً حكيماً ﴾ [النساء: ١٦٣ - ١٦٥].

وكان هؤلاء الرسل - عليهم أفضل الصلاة والسلام - يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق على حد التعبير القرآنى المحكم فى سورة «الفرقان»؛ تعبيراً عن بشريتهم، ودليلا على قدرة من أُرسلوا إليهم على أن يكونوا مثلهم، حيث نرى قول الله سبحانه: ﴿ وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون، وكان ربك بصيراً ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وكان كل رسول يُرسَل إلى قومه، متحدثًا بلسانهم، مخاطِبًا

ما فيهم من خصوصية، حتى كان محمد ﷺ فجاء خطابه للناس عامة حسب قوله تعالى:

﴿ قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعًا الذى له ملك السموات والأرض، لا إله إلا هو يحيى ويميت، فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

**وسواء كان الخطاب لقوم بعينهم كما كان خطاب سائر الأنبياء والرسل – عليهم أفضل الصلاة والسلام – إلى مَنْ أُرسلوا إليهم، أو كان خطابًا للناس كافة، كما كان خطاب خاتم الأنبياء والمرسلين محمد ﷺ، فقد كان هدف هذا الخطاب واضحًا، وهو تصحيح علاقة الإنسان بربه، وتصحيح علاقته بالناس والأشياء، وبسائر عناصر الكون.**

ومنطقىٌّ أن يكون للأبناء فى خطاب الأنبياء جميعًا نصيب، باعتبارهم نعمة من نعم الله التى لا تُعدُّ ولا تُحصَى.

# الفصل الثانى
# الأبناء نعمة

يلفت نظرَ قارئ القرآن الكريم رَبْطُهُ كثيراً بين المال والبنين، عندما يتحدث الله – سبحانه – فى موضع منه عن أسباب القوة فى الأرض، سواء فى ذلك قوة الفرد، أو قوة الجماعة، وهى قوة تقود إلى الغرور والاغترار، إلا من هدى الله.

ومن أمثلة من اغتر بماله وولده ونزل فيه قرآن: «الوليد بن المغيرة»، حيث يقول الله – سبحانه – عنه لرسوله ﷺ:

﴿ ذرنى ومن خلقتُ وحيداً* وجعلتُ له مالا ممدوداً* وبنين شهوداً* ومهدتُ له تمهيداً* ثم يطمع أن أزيد ﴾

[المدّثر : ١١ – ١٥].

أما عن الأمم التى أهلكها غرورُها، واغترارها بما أوتيت من مال وولد، وغيرهما من أسباب القوة، فتفيض بها كتب التاريخ، ويشير إليها القرآن الكريم فى مثل قول الله سبحانه :

﴿ كذبت قبلهم قومُ نوح وأصحابُ الرَّسِّ وثمود* وعاد

وفرعون وإخوان لوط* وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع، كل كذَّب الرسل فحق وعيد﴾ [ق : ١٢ - ١٤].

وهكذا يكون الأبناء نعمة، باعتبارهم قوة للآباء وقوة للأمة جميعًا، إن لم يكونوا نعمة النعم، لاعتبارٍ آخر، هو أنهم الدليل الحى على حيوية تجمّع بين ذكر وأنثى، أمر الله - سبحانه - به على النحو الذى شرعه لتستمر الحياة، وهى بالنسبة إلينا حياة الإيمان التى يباهى بنا وبها رسولُ الله ﷺ الأممَ يوم القيامة.

إن الأبناء نعمة من نعم الله على الآباء؛ لأنهم دليل حيويتهم، ودليل خصوبتهم، ودليل اقتدارهم أيضًا، إضافة إلى كونهم مزرعة يزرع فيها الآباء آمالهم التى لم يستطيعوا تحقيقها، وهم باب من أبواب رفع الدرجات عند الله - سبحانه وتعالى - فى الآخرة، وذلك حين يترك الواحد منهم من بعده «ولدًا صالحًا يدعو له» على حد تعبير الرسول ﷺ .

وإذا نظرنا إلى أبنائنا على أنهم نعمة واستثمرنا فيهم وفى تربيتهم وتأديبهم وإعدادهم للحياة الفاضلة، فسوف نجدهم عندما نحتاج إليهم فى ساعات الضعف، وفى حالات العِوَز إلى العون

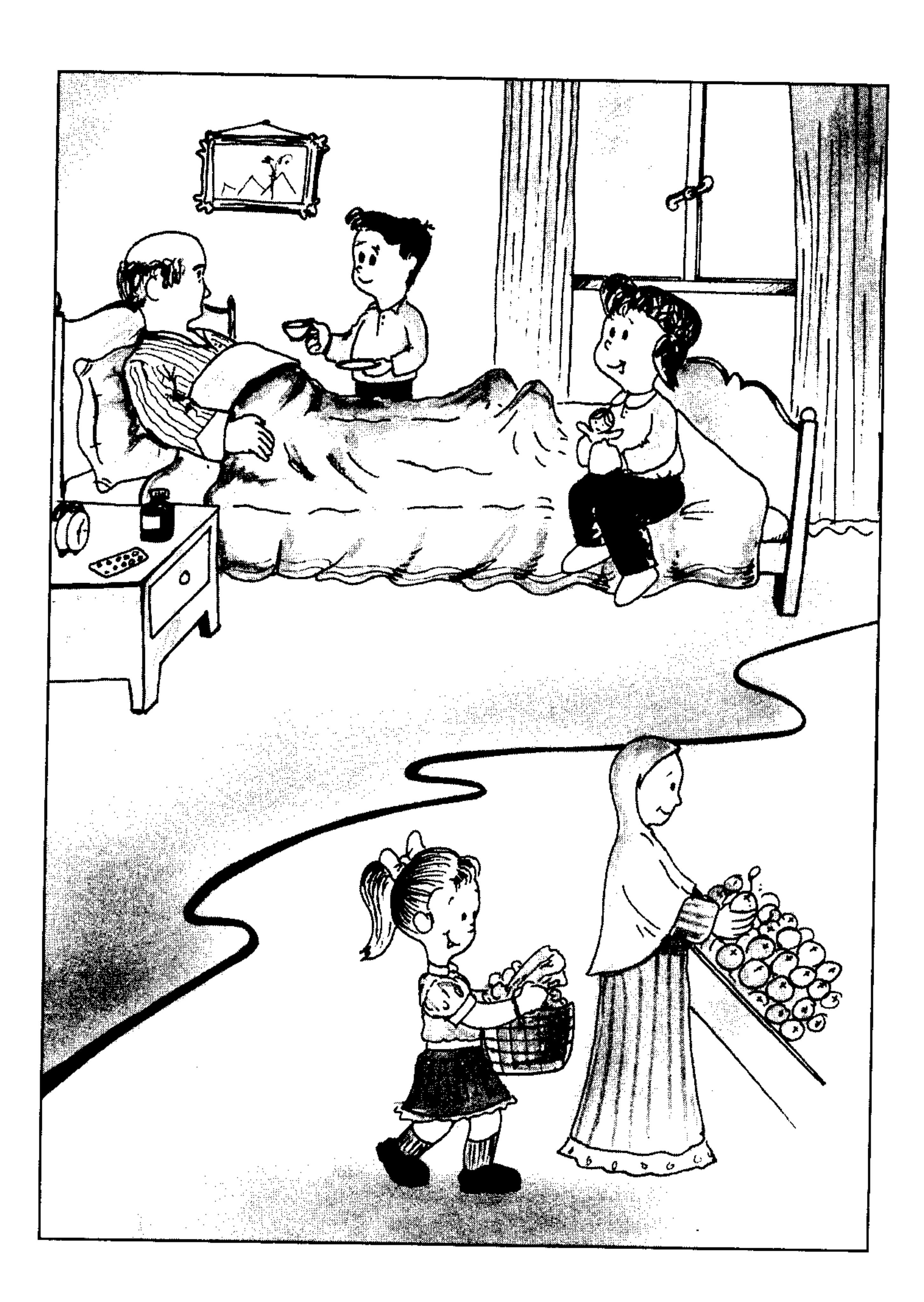
والمساعدة، وهى حالات محتمل وقوعها، حتى قبل سن الشيخوخة، خاصة فى هذا الزمان.

**لقد أثبتت تجربة الإنسان الطويلة على الأرض أن الأبناء هم حصن الأمان الأكثر ضمانًا للآباء فى ساعات العسرة، التى قد تأتى فى هذا الزمان فى أى وقت، ولكن معدلاتها تتزايد كلما تقدمت بالإنسان السن، وذلك إذا أحسن الآباء تربية هؤلاء الأبناء.**

ومما تجدر الإشارة إليه فى هذا المجال أن احتياج الآباء إلى الأبناء فى ساعات العسرة تلك، ليس احتياجًا ماديا بالضرورة، ولكنه احتياج نفسى بالدرجة الأولى، يعبر عنه القرآن الكريم أدق تعبير فى قول الله سبحانه : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا، إما يبلغن عندك الكبَرَ أحدُهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍّ ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريمًا* واخفِض لهما جناحَ الذل من الرحمة وقل ربِّ ارحمهما كما ربيانى صغيراً ﴾

[الإسراء: ٢٣، ٢٤].

**إن احتياج الآباء إلى الأبناء ماديا أمر وارد، ولكنه لا يحل**



**المشكلة، بدليل فشل المنهج الغربى فى هـذا المجال فى حلها، رغم ما يوفـره للآباء والمسنين والعـجـزة والعـاطلين عن العـمل من نفـقـات ضخمة؛ لأنه منهج يتغـافل هذه الرحمة والمودة وخفض جناح الذل من الرحمة، التى يقوم عليها المنهج الإسلامى، الذى نعيش اليوم فى أمن حقيقى بسببه؛ رغم ضيق ذات اليد.**

ورأس مال هذا المنهـج الإسلامى الشامل بسيط غاية البـساطة، فـهـو لا يتـعـدى تقـبل الولد عند ولادته، وشكـر الله عليـه، شكراً يتـرجَم فى الحـياة اليـومـيـة إلى مناغـاة له، ورعـاية لأمه، واهتـمـام بشئونه، ليشب الوليد وينمو لديه إحـساس بالتقبل، وإحساس بالأمن، وإحساس بالرضا نتيجـة لذلك، مما يُنَمِّى فى قلبه معنى الحب للحياة والأحيـاء، الذى يُترجَم إلى مـشروع حـياة لدى الطفل، يتـمثل فى حب الأب، والسمع والطاعة له، ومراعاة مشاعره، وتمنِّى أن يرد له الجميل كلمـا سنحت الفرصة، وهى لا تسنح إلا فى فـترات ضعف الأب أو الأم، أو هما معًا، وخاصة فى شيخوخـتهما، حيث تتحول أوامـر القـرآن الكـريم للابن، كـمـا نراها فى السـورة الـسـابقـة إلى مـوجـهـات للسـلوك، تنبع من نفس الابن، فـلا يـجـد مـشـقـة فى

تنفيذها، بل يجد فيها راحة وسعادة ما بعدهما راحة وسعادة.

**وهكذا يبدأ المنهج الإسلامى فى استثمار نعمة الأبناء، بزرع الاتجاه الإيجابى نحو الأبناء فى نفوس الآباء، فيبدأ المنهج مبكرًا، بمجرد الشروع فى الزواج، حيث يجب أن يقوم هذا الزواج على الاختيار الحر بين الزوجين، القائم على تقوى الله لا على المصلحة الدنيوية، وعلى الوُد والرحمة، وعلى دور محدد للأب، هو بذل الحب وبذل المال على قدر طاقته، وعلى توفير الأمن، مهما يَسِر إليه هذا الزواج، على نحو ما يُفهم من قول الله - سبحانه - فى سورة النساء، والتى سماها باسم العنصر الحاضن لنعمة الأبناء، حيث يقول الله سبحانه :**

﴿يأيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهًا، ولا تعضُلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعلَ الله فيه خيرًا كثيرًا* وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارًا فلا تأخذوا منه شيئًا، أتأخذونه بهتانًا وإثمًا

مبينًا* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضُكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقًا غليظًا ﴾ [النساء: ١٩ - ٢١].

**وعندما توضع بذرة الطفل فى رحم أمٍّ تحس بهذا الأمان وبهذا الحب؛ فإن الطفل لابد أن يتطور فى بطنها التطور الأمثل، على نحو ما يقول أهل الطب وأهل الصحة النفسية.**

وعندما يَقذف بالابن إلى الدنيا رحمُ أمه، يجد الترحيب به، والتكبير فى أذنيه، وعقيقةً يعبر بها الأب عن فرحته بهذه النعمة القادمة، ويدعو المسلمين من حوله ليشاركوه فرحته، مثلما يعبر بها عن شكره لله عليها، مما يزرع فى النفوس المحيطة به أن الوليد القادم لا يمكن أن يكون إلا نعمة من الله، فيكون اتجاه إيجابى عام نحو القادمين الجدد إلى الحياة، لابد أن يكون له انعكاسه عليهم؛ فيحبوا الحياة، ويحبوا الأحياء، وبذلك يتحولون مع الأيام إلى بنّائين للحياة، مضيفين إليها، مصلحين لها، فيتحقق شكر النعمة؛ لأن الله - سبحانه - ما خلقَنا إلا لنبنى ونعمر، فهذا هو معنى استخلاف الله لآدم وبنيه فى الأرض.

**وإذا كان الأب أو ولى الأمر يُسنُّ له أن يذبح عقيقة شكرًا لله،**

**وإعلانًا عن ابتهاجه بالقادم الجديد، فإنه مأمور من الله - سبحانه - بأن يوفر للوليد وأمه الهدوء والأمن، مع الطعام والشراب، كلٌّ على قدر طاقته؛ حتى يستمتع الطفل الرضيع بلبن أمه، ويستفيد منه، ويشرب معه الأمان والحنان والهدوء والدفء؛ فيشب صحيحًا من الناحية النفسية والجسمية جميعًا ، على نحو ما نرى فى قول الله سبحانه:** ﴿ والوالداتُ يُرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة، وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف، لا تكلَّف نفسٌ إلا وسعَها، لا تضار والدة بولدها ولامولود له بولده، وعلى الوارث مثل ذلك، فإن أرادا فصالا عن تراضٍ منهما وتشاوُر فلا جناح عليهما، وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف، واتقوا الله .. ﴾ [البقرة : من ٢٣٣].

ونقف عند الحولين الكاملين اللذين يقررهما القرآن الكريم للرضاعة، ليقول لنا أهل الطب قولتهم فى قيمة لبن الأم بالنسبة إلى الابن فى هذه المرحلة، ومسايرته لمراحل نموِّ الابن، وتطوره الجسمانى، إضافة إلى أن الطفل لا يرضع من ثدى أمه اللبن وحده، ولكنه يرضع معه الحب والحنان، الذى نراه فى حركات يد الأم

على جسم ابنها، وفى مداعبة الطفل لثـدى أمه، وملاعبة كل منهما للآخر.

**إن الطفل يتحسس الحـياة فى هذه المرحلة من العمر، متمثلة فى أمه، وإحساسُه بدفء أمـه فى هذه المرحلة يقوده إلى الاطمئنان إلى هذه الحـياة، مما يؤدى إلى النمـو السليم، الذى يقوده إلى أن يصـبح عنصرَ خير، يبنى ولا يهدم، ومن ثَمَّ يكون إرضاع الأم لطفلها على هذا النحو، هو أيـضًا شكرًا لله على النعمة تـقدمه الأم، ويسـاعدها عليـه الأب، بما ينفق من ماله ومن وقـته ومن جـهده، لتـوفيـر المناخ الصالح، لتهيئة ذلك كله.**

وقد يقف ضـيق ذات اليد حـائلا دون تحقـيق ذلك كله، مما يدفع ببعض الآباء فى هـذا الزمان إلى محـاولة التخلص من الجنين، إشـفاقًا عليه وعلى إخوته، ومما دفع بعـض الآباء قبل الإسلام إلى وأد أبنائهم، خاصة إذا كان المولود بنتًا، خـوفًا من أمر آخر يُضاف إلى ضيق ذات اليد، وهو السـبى بسبب الحرب، أو بـغير هذا السـبب، ولكن القرآن الكريم يطمئن الآباء من هذه الزاوية، سواء كانوا فقراء فعلا، أو أغنياء يخشـون الفقـر، حيث يذكِّر سـبحانه الـفقراء بأنه هو الـذى يرزقهم

ويرزق أولادهم جميعًا، مثلما يرزق غير هؤلاء الأولاد، ممن يمكن أن يكون هؤلاء الفقراء يعولونهم، حيث يقول الله سبحانه :

﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم، ألا تشركوا به شيئًا، وبالوالدين إحسانًا، ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ﴾ [الأنعام: ١٥١].

ومثلما يذكِّر الله - سبحانه - الفقراء بأن الأمر كله بيده، يطمئن الأغنياء الذين يخشَون الفقر، بأن الله - سبحانه - هو الذى رزقهم، وبأنه هو الذى سيرزق أولادهم مثلما يرزقهم هم، حيث يقول سبحانه :

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملومًا محسوراً* إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، إنه كان بعباده خبيراً بصيراً* ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئًا كبيراً ﴾ [الإسراء : ٢٩ - ٣١].

**إننا إذا تيقنا من أن الأبناء نعمة، وشكرنا الله عليها، بصيانتها على النحو السابق، فإن الله سيبارك لنا فيهم، وسيجعلهم عونًا لنا، وعونًا لأنفسهم، وعونًا للمجتمع الذى نعيش فيه، وسوف يُحسب ذلك كله لنا فى ميزان حسناتنا يوم القيامة – أيضًا – على نحو ما نفهم من قول الله سبحانه :**

﴿ زُيِّن للناس حُبُّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطَرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاعُ الحياة الدنيا، والله عنده حُسنُ المآب ﴾ [آل عمران : ١٤].

**أما إذا لم نعتبر الأبناء نعمة، ونظرنا إليهم على أنهم عبء علينا وعلى الحياة، كما هو الشائع بيننا فى هذا الزمان، فإن ذلك سينعكس علينا فى تعاملنا معهم، مما سيؤثر سلبًا عليهم؛ فيشبون بالفعل عبئًا علينا وعلى الحياة من حولنا، وهذا هو الضلال بعينه،** على نحو ما نفهم من مثل قول الله سبحانه :

﴿ ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومَهم دارَ

البوار* جهنم يصلونها وبئس القرار ﴾ [إبراهيم : ٢٨، ٢٩].

**إن الأبوة يمكن أن تتحول إلى متعة حقيقية، ويومها سيخف علينا عبءُ الحياة، وستحلو فى أعيننا ونفوسنا؛ لأننا سننظر إليها بعين مختلفة، هى عين البذل والعطاء، لا عين الاستمتاع وإشباع الشهوات والمباهاة الباطلة، ويومها سنحس بأن لحياتنا معنى وهدفًا وقيمة، تتحول بها حياتنا التى نحياها اليوم من النقيض إلى النقيض؛ تمامًا كما تحولت حياة الأعراب بالإسلام، من حياة صاخبة مائجة، لا أمن فيها على النفس ولا على الأهل، إلى حياة كلها أمن وأمل ويقين .**

# الفصل الثالث
# صيانة النعمة

حدد رسول الله ﷺ كيفية صيانة نعمة الولد، بقوله فيما أخرجه الترمذى عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – عنه ﷺ :

«ما نَحَلَ والدٌ ولدًا من نُحَلٍ، أفضل من أدبٍ حَسَن».

وهذا الأدب الحسن أفضل ما يُعطَى للابن، وهو لا يكون بالتأديب المألوف المتعارف عليه وحده، وإنما يكون بوسائل كثيرة تسبقه، منها ما أشرنا إليه من قبل، من حُسن استقبال الطفل، وحسن رعايته، وتوفير الجو الذى ينشأ فيه نشأة سليمة جسديا، وعقليا، ونفسيا، إضافة إلى اختيار اسم حسن له.

وليس ممكنًا أن يحدُث ذلك كله دون أن يسبقه الاختيار الجيد للزوجة قبل الزواج، بحيث تكون ذات دين وخلق؛ حتى تحمل الأمانة مع الزوج حملا تتقى الله فيه، وبذلك يُضمن ألا تقع عين الطفل من أمه وأبيه إلا على كل حسن، فيجد فيهما معًا خير قدوة له، مما يسهل عملية تعليمه وتأديبه، وتلقينه أدب الشرع وفرائض

الدين، تلقينًا لن يَتعَب الوالدان فيه بإذن الله، وذلك لأن الطفل يقلد الوالدين فيما يفعلان فى البدايات، ولأن الطفل إذا أحب إنسانًا فإنه ينفعل معه، ويتلقى عنه بسرعة لا يستطيع الكبارُ تصورها.

ولو أننا دخلنا إلى هذا الأدب الحسن من هذا الباب الواسع، وهو حب ابننا وتقبله، فسوف نجد أعيننا تقع من هذا الابن على حقيقته شيئًا فشيئًا، فلا نرى فيه إلا كل ما يُسعد النفس ويشرح الصدر، وكل ما يدفع دفعًا إلى الصبر عليه، وإلى الاستمتاع بهذا الصبر - أيضًا - استمتاعًا يدفع إلى مزيد من الصبر، ومزيد من التحمل والتجمل، ومزيد من الاستمتاع بالحياة، مهما يكن واقع هذه الحياة بمنظور الناس فى زماننا هذا، وهو منظور يصب فى عقولنا وقلوبنا صبا، من خلال حركة الحياة فى مجتمعنا المعاصر، ومن خلال وسائل الإعلام التى تقتحم علينا منازلنا وأنفسنا وعقولنا وقلوبنا جميعًا، وخاصة التليفزيون، وما يقدمه من أعمال درامية، ومن إعلانات عن السلع أيضًا.

**سوف يكون ابننا مُعينًا لنا - إن شاء الله - على أن نغالب مشكلات الحياة من حولنا، إذا دخلنا إلى هذا الأدب الحسن معه**

**من هذا الباب الواسع، لنستنبت الورد وسط أشواك الحياة الحادة العنيفة التى لا ترحم، والتى هى إفراز من إفرازات حياتنا المعاصرة، التى صارت تنجرف انجرافًا مخيفًا فى طريق المادية، بعيدًا عن قيم السماء التى أتتنا من خلال أنبياء الله جميعًا، عليهم وعلى نبينا محمد أفضل الصلاة والسلام.**

إننا سوف نعتقد أننا نؤدبه الأدب الأحسن، ولكننا سنكتشف بعد ذلك أنه هو الآخر يؤدبنا أدبًا أحسن، وأنه يساعدنا على أن نتقرب من الله، وأننا نزداد صفاء كلما اقتربنا منه، وانفعلنا معه، ونزداد لله تقوى، ومن الله قربًا، وكم هى حكيمة مقولة العوام: «إن أبناءنا هم الذين يربوننا، ولسنا نحن الذين نربيهم»، وإن كانت هذه المقولة ستكون أكثر حكمة، إذا تم تحويرها لتكون: «إن أبناءنا يربوننا بنفس القدر الذى نربيهم به».

**إننا نحاول أن نسوقهم سوقًا إلى حياتنا – نحن الكبار – مع أننا نضيق بهذه الحياة، يدل على ذلك شكوانا المتكررة منها فى هذه الأيام، بحق وبغير حقٍّ، وهذه الشكاوى المتكررة من حياتنا، لابد أن تنتقل إليهم، لأنهم يسمعون منا هذه الشكوى المتكررة،**

ويضيقون بها، ويضيقون بنا من أجلها، بينما هم يريدون أن يجرونا إلى حياتهم؛ حياة الفطرة، والبساطة، وعدم الالتواء، وعدم الكذب والخداع.

وليست القضية قضية إعلاء من شأن حياة أطفالنا، وإقلال من شأن حياتنا نحن الكبار، ولكن القضية قضية إقرار حقٍّ؛ لأننا لا يمكن أن ندعهم لحياة البراءة والطهر التي يحيونها دون أن نتدخل في هذه الحياة، ونقودهم منها إلى حياتنا نحن، بكل سوءاتها وأوجاعها، لأننا إذا لم نقدهم إليها بِرقتنا وحُنوّنا عليهم، فسوف يقودهم غيرنا إليها، بكل القسوة والعنف، وذلك عندما يشبون عن الطوق، ويُضطرون إلى التعامل مع الغير، فى خارج نطاق الأسرة، وسواء كان هذا الغير أندادًا لهم فى السن ممن لم يجدوا فى بيوتهم قلوب الآباء الحانية، فتلمسوها خارجها، أو كبارًا ممن أفسدتهم الحياة، فوهبوا أنفسهم لإفسادها، ربما انتقامًا من المجتمع الذى قادهم إلى هذا الفساد، وليس هناك أغلى على المجتمع من هؤلاء الأبناء، فهم أمله، وهم مستقبله، مثلما هم أمل ذويهم ومستقبلهم، وقرة أعينهم جميعًا.

وسـواء اقتنعـنا بأن أبناءنا نعـمة أو لـم نقـتنع، وسـواء اقـتنعنا بأن لديهم ما نتعلمه منهم أو لم نقتنع، وسـواء اعتبرناهم نعمة يجب أن نحافظ عليها ونشكر الله عليها أو لم نقتنع؛ فإن الشيء المؤكد أنهم هم ثمرة حياتنا، وأن هذه الثمـرة إذا لم نرعها ونتـعهدها، فسوف تفسـد، وأن فسـادها لا يقف شـره عليـهم عندمـا يكبـرون، وإنما يتـجاوزهم إلى كل المحـيطين بهم، وفى مقـدمتـهم الآباء، بوصفـهم المسئولـين بالدرجة الأولى عما جـرى منهم ويجرى، عند الله وعند الناس جميعًا.

ومن ثَمَّ فـإنه يكون من الحكمـة أن نتعـهدهـم اليوم؛ حـتى نأمن عدم انحرافهم غداً على أقل تقدير، لأن المتوقع هو أننا إذا تعهدناهم صغـاراً، واتقينا الله فيهم، فـإنهم يردون هذا التعهـد إلينا، برا ووفاء وحُسن رعـاية، حـينمـا نتـقـدم فى السن، ونكون مـحتـاجين كل الاحتياج إلى هذا البر والوفاء.

وحتى لا يكون تعـهدنا لهم مـجرد وظيفـة، فيتـحول إلى عبء نفسى ثقيل، كما نراه يحدث فى مجـتمعات الغرب المادى، الغارقة فى متع الحيـاة؛ فإنه يكون من المستحـسن أن نستمتع بهذا التـعهد،

وأن نحتسبه عند الله، فنجنى جميعًا بهذا الاحتساب ثواب الدنيا والآخرة، ونستمتع به وبهذا التعهد الذى نتعهده لأبنائنا – كل أبنائنا .

**وإذا تعهدنا أبناءنا – هكذا – محتسبين، فسوف نجد كلا منهم نسيجَ وحده، وسوف نجد فى كل منهم ما يشدنا إليه، ويجعل تعاملنا معه بالأسلوب الأكثر مناسبة له، مصدر استمتاع لنا أيضًا، يخفف عنا كثيرًا من الجهد الذى نبذله على طريق إعاشتهم، وعلى طريق تربيتهم وتنميتهم أيضًا.**

**إننا سوف نستمتع بتنوعهم وما بينهم من اختلافات، وسوف نجدهم قد حولوا البيت الذى نعيش فيه إلى شىء أشبه بحديقة غناء، تتنوع ثمارها، ولكن جمالها يكمن فى هذا التنوع، وسوف نرى فيهم العصبى المزاج والهادئ الطبع، كما سنجد الأنانى والاجتماعى والعقلانى والعاطفى، وسوف نجد لكل طعمًا مختلفًا، ولكننا سنرى فيهم مجتمعين الحياة فى تنوعها.**

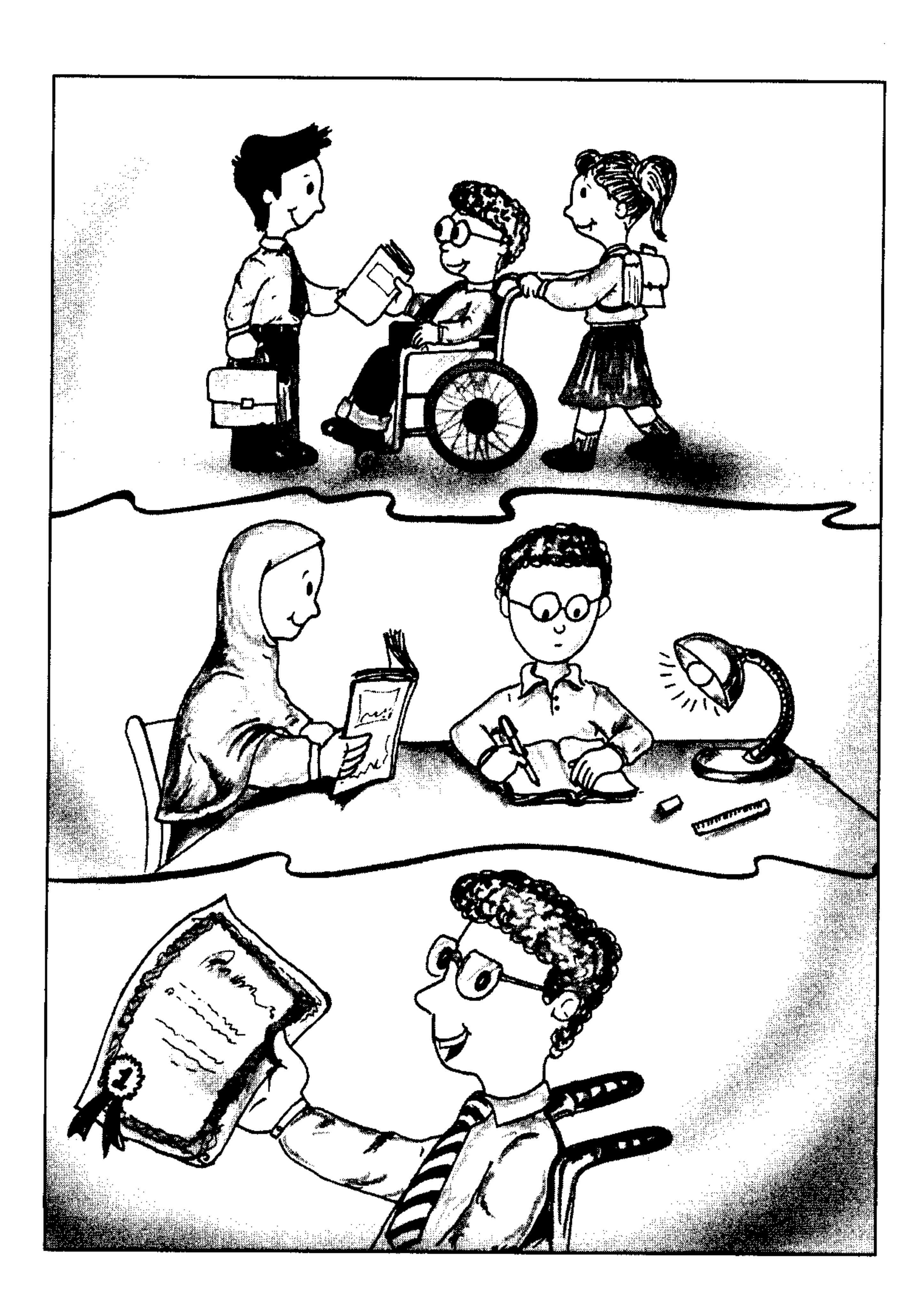
**وسوف نجد أجمل هؤلاء الأبناء جميعًا وأقربهم إلينا، أكثرهم احتياجًا إلينا، ومن ثم سنجد قلوبنا جميعًا تلتف حول الصغير، وحول المريض ، وسوف نجد أن رحمة الله تطرق باب بيتنا من**

**خلال تجمعنا وتماسكنا، ومن خلال التفافنا حول ضعيفنا، وسنجد البرَكة تحل فيه، من خلال هذا الالتفاف وذلك التجمع.**

وهكذا سيكون تعهدنا لأبنائنا، فرادى ومجتمعين على هذا النحو، هو بداية كل خير لنا ولهم، فسيجدون فينا القدوة عندما يحبوننا، وسينظر كل منهم إلى نفسه على أساس أنه جزء من كل، وسيتم تحديد أهداف الأسرة فى ضوء ظروفها وإمكاناتها، كما سيحدد كل فرد من أفرادها هدفه، فى ضوء هذا الهدف العام للأسرة، وفى ضوء ظروفها وإمكاناتها أيضًا، وسيحدد كل فرد من أفرادها دورًا يقوم به، فى ضوء هدفه الخاص وهدف الأسرة العام، وسيكون لكل منهم هدف ودور، ومن ثم سيكون للحياة عند كل منهم معنى وقيمة، مما يثرى حياته، ويزيد من البرَكة التى يُرجى لها أن تشيع فى جنبات الأسرة.

وسنجد عجلة الأسرة تدور، دون جهد منا يُذكَر، لأن اتضاح الأمور بالنسبة إلى أفراد الأسرة يجعل الحياة مريحة، وإنما الذى يزعج هو ألا يكون هناك خط عام واضح ومتفق عليه.

**وسنجد عجَلة الأسرة تدور بشكل أفضل، لو أن فيها معوقًا**



**ابتُليت به الأسرة، حيث يكون لكل أفراد الأسرة هدف محدد واضح هو مساعدة هذا المعوّق، وحيث تُشحذ همم هؤلاء الأفراد، وحيث يتجمعون، وحيث يكون النجاح والإنجاز والتجمع، مما يحول هذا المعوّق إلى برَكة وخير يحل فى البيت، على حد ما نسمع كثيراً من العوَام، حين يربطون حلول البركة والخير فى بيت من البيوت بوجود شيخ هرم أو معوّق فيه. ولو أننا اهتممنا بهذا المعوّق فى الأسرة، وتلمسنا مَنابت القوة فيه، وحاولنا توجيهه من خلالها لخير نفسه، لحَولناه من عالة علينا إلى عون لنفسه ولنا وللمجتمع جميعًا.**

إن هذه هى قصة نبوغ من نبغوا من المعوقين فى ثقافتنا، كأبى العلاء المعرى، ومصطفى صادق الرافعى، وطه حسين، وفى ثقافات غيرنا مثل:هيلن كيلر، وبيتهوفن.

# الفصل الرابع

# استمتع بطفلك

إذا كان طفلك نعمة أنعمها الله عليك، حتى ولو كان عاجزاً أو معوَّقًا، فإن عليك أن تشكر الله على هذه النعمة، بأن ترعاها حق رعايتها، لتجد المدخل المناسب لما سماه رسول الله ﷺ «الأدب الحسن»؛ فإنه يكون من الحكمة أن تستمتع بطفلك استمتاعًا حقيقيا، فهذا هو الدليل الواضح على شكر الله – سبحانه – على نعمته.

كذلك يكون من الحكمة أن تُظهِر لطفلك هذا الاستمتاع منذ مولده، وحتى يشب ويكبر،وذلك بحمله ومناغاته رضيعًا، واللعب معه طفلا صغيراً؛ فإظهار استمتاعك بطفلك إنما هو رسالة حب تصل بينك وبينه، لابد أن يكون لها صداها عنده، وأن يكون لها مردود إيجابى طيب، حيث يكون عونًا لك على ما تقوم به من أدب حسن نحوه.

ولا تنس أن الرحمة التى أمر الله – سبحانه – بها بين المرء

وزوجه، إنما تصب فى هذا الاتجاه أيضًا، فهى تهيئة للجو المناسب لهذا الأدب الحسن المنشود.

ولو أنك أحببت ابنك واستمتعت به على هذا النحو، فسوف تكتشفه على حقيقته، وسوف تنطلق فى تربيته من حيث هو حقيقة، لا من حيث كنت تتمنى أن تراه، إلى ما تريده أن يكون عليه.

**إنك تريد أن تراه يفهم ويعى ويدرك، ويتصرف تصرف الكبار الناضجين الواعين المسئولين، المقدرين لعواقب الأمور، وهذا من حقك ، ولكنك ستراه فى تصرفاته معك ومع غيرك فى البيت دون ذلك كثيرًا، ومن ثَمَّ كان احتياجه إليك، لتضع له خطة ذكية، تنقله بها من حيث هو إلى حيث تريده أن يكون.**

**سوف تراه محدود الخبرة، وعليك أن تستمتع بتنمية خبرته، فهذه هى متعة الأبوة الحقيقية؛ أن تزرع فى أرض – هى بعون الله – خصبة، لو أنك شكرت الله عليها.**

وهذه الأرض الخصبة التى وهبك الله إياها من خلال طفلك،

حدد القرآن الكريم لنا معالمها فى مثل سورة النحل؛ حيث يقول الله سبحانه :

﴿ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئًا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴾ [النحل : ٧٨].

ولو أننا تأملنا معالم هذه الأرض الخصبة كما حددتها الآية الكريمة، لوجدناها نفس المعالم التى يمنُّ بها الله – سبحانه – على عباده، باعتبارها نعمة الله الكبرى التى أنعم بها على الإنسان، فكان واجبًا عليه شكر الله – سبحانه – عليها، على نحو ما نرى فى مثل قول الله سبحانه :

﴿ وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ [المؤمنون : ٧٨].

وقوله تعالى :﴿ قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ [الملك : ٢٣].

كما سنجد هذه المعالم، هى نفس المعالم التى يتكون منها الكيان الإنسانى الراشد المكلف العاقل، والتى يقدِر بها على فعل

الخيرات فيدخل الجنة، مثلما يقدر بها على اجتراح السيئات فيدخل النار، على نحو قول الله سبحانه :

﴿ ولا تقفُ ما ليس لك به علم، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ [الإسراء : ٣٦].

**ومن ثَمَّ، فإن تنمية السمع والبصر والفؤاد فى اتجاه الخير يجب أن تكون هدفنا نحن الآباء، كما يجب أن يكون الاستمتاع بطفلنا من خلالها أيضًا، فلا ندعها تقع منه إلا على كل جميل، حتى تكون منافذ جمال إلى نفسه ، فيكون جميلا، كما نريده أن يكون، وإلا فلا تلومن إلا نفسَك؛ وإن كان ذلك صعبًا فى هذا الزمان، لأنه يرانا ويرى غيرنا، من خلال التليفزيون على الأقل، ولكنه قدَرنا الذى يجب أن نحتسب عند الله ما نبذله من جهد فيه، لنجنبه مخاطر هذا الغير.**

إن السمع والبصر والفؤاد التى يولد طفلنا مزودًا بها، لا تعدو أن تكون المادة الأولية للإمكانات والاستعدادات التى نقوم نحن الكبار ببلورتها وتشكيلها، من خلال تعاملنا معه، وتفاعله معنا ومع غيرنا من الناس والأشياء جميعًا، لتوجيه الطفل الوجهة التى نرغب فى

توجيهه إليها، **ومن ثَمَّ فإننا يجب ألا نضيق ذرعًا بما يصدر عنه فى البدايات، مما لا يعجبنا، وهو كثير وكثير، وإنما يجب أن ننطلق من هذا الذى يصدر عنه، للتوجيه والقيادة الذكية الواعية.**

إننا نضيق بحركته التى لا تهدأ، خاصة عندما يترك مهده، ويبدأ يتحرك بيننا، مع أن هذه الحركة دليل حيوية ونشاط، ودليل مستقبل واعد إن شاء الله، إذا نحن تقبلناها واستوعبناها، واستثمرناها أيضًا، فعلمناهم من خلالها، بدلا من أن نحاول الحد منها، فقد كان رسول الله ﷺ يشجع الأطفال على اللعب، ويشاركهم هذا اللعب أحيانًا، ليعلم صحابته وأمته كلها كيف تتعامل مع حركة أطفالها ونشاطهم، بل إن كُتب السيرة تذكر أنه ﷺ قد أطال السجود فى إحدى الصلوات، حتى ظن الصحابة – رضوان الله عليهم – أنه قد قضى (أى مات)، فإذا بهم يكتشفون أن الحسين قد اعتلى ظهره وهو ساجد، فلم يرد أن يزعجه، فانتظر حتى نزل.

لقد أراد النبى ﷺ أن يعلمهم – رضوان الله عليهم – ويعلم أمته من خلالهم ،كيف تتعامل مع صغارها، وكيف تستمتع بهم،

حتى فـى الصلاة، حيث الـوقوف بين يدى الله – سـبحانـه – كأنما يريد أن يقـول لأمته: إن الاسـتمـتاع بأطفـالنا عبـادة أيضاً، كعـبادة الصلاة.

ولنعرف أن حركة طفلنا نعمـة من الله، يمن بها عليه وعلينا، فإن علينا أن نتـصور مـاذا لو كان هذا الطفل لا يتـحرك لأى سـبب من الأسباب؟

**ومثلما نضيق بحركة طفلنا فنسىء استغلال النعمة التى أنعم الله بها عليه وعليـنا من خلالها، نضيق بأسئلتـه التى لا تنتهى، ويلح فى كل منها إلحاحًا، ويـحرجنا فى بعضها إحـراجًا، مع أن أسئلة الطفل دليل ذكاءٍ، ومؤشـر على مستقبـل واعد – إن شاء الله –، إذا نحن فـتحنا صدورنا لهـذه الأسئلة، وشـجعناه عليـها، ورحنا نأخـذ بيده لنعلمه، ونتعلم معه ما لا نعرفه.**

**إن مجـرد تعلمنا معـه قيادة لنـا وله نحو مسـتقـبل طيب إن شاء الله.**

إننا سنزداد فهمًا له، وسنزداد كذلك قدرة على توجيهه، فتزداد

ثقته بنا، فنكون قِبلته التى يتجه إليها كلما تعرض لمشكلة فى مستقبل أيامه، لنناقشه فيها، بدلا من أن يتلقفه غيرنا، ممن يوجهونه وجهة قد نندم نحن عليها.

**وإذا ما تيقنَّا من أن أسئلة الطفل نعمة من نعم الله التى أنعم بها عليه وعلينا، فإننا سنشكر الله عليها، بأن ننميها لدى الطفل، ونتخذ منها مدخلا لقيادته وتعليمه، وسنجد التقدم العلمى يساعدنا كثيراً فى هذا المجال، فسنجد المكتبات العامة، والمكتبات المدرسية، ومكتبة الطفل، كما سنجد قناة المعلومات فى التليفزيون، وسنجد وسائل عدة، نحصل من خلالهاعلى المعلومات التى يسأل الطفل عنها، وسنعرف هذه المعلومات معه، وسيُضاف إلينا مثلما يضاف إليه، وسنجد حياتنا معه أكثر متعة، وأكثر ثراء.**

والطفل بوصفه كيانًا بشريا قائمًا بذاته، لابد أن يكون مختلفًا عن إخوته فى داخل الأسرة، ومختلفًا عن غيره من الأطفال خارجها، وهذا هو الدرس الأول الذى سنخرج به من خلال دراستنا لطفلنا ولإخوته، محاولين التسلل إلى نفسه لنتفهمه، وهو ما لا تستطيع المدرسة بعد ذلك أن تتقبله، ولا أن تعامل طفلنا على

أساسه لأسباب كثيرة، لابد أن نلتمس لها العذر فيها.

**إن أمام المدرس فى الفصل عشرين أو ثلاثين كيانًا بشريا على الأقل، يتعامل معها جميعًا فى وقت واحد، ويصعُب عليه أن يتعامل مع هذه الكيانات كأفراد، إلا بصعوبة؛ إلا أننا نحن الآباء لن نجد لأنفسنا العذر الذى يجده المدرس فى الفصل لنفسه، إلا أن يكون هذا العذر هو الانشغال بالحياة، وهو عذر لا يمكن قبوله، لأن المفروض أن ابننا هو الحياة وهو الأمل، وهو بالنسبة إلينا الجنة والنار أيضًا.**

وإذا كان قد كُتب على ابننا أن يحس بضياع ذاتيته فى خضم المدرسة الواسع، الذى لا مهرب منه فى هذا الزمان، فإن معنى ذلك أن العبء يكون علينا نحن الآباء مضاعفًا، لنعوضه عن ذلك بمزيد من الانشغال به فى المنزل، وبمزيد من الاستمتاع به أيضًا، وبذلك نضمن لابننا فائدة مزدوجة، لا يحرم فيها من التفرد الذى هو أصيل فيه، وسمة غالبة له، ولا يحرم من الحياة فى جماعة فى المدرسة، ولا من التعلم جميعًا.

**سيكون العبء ثقيلا أول الأمر – أول الانتقال إلى المدرسة –**

ولكن هذا العبء سيخف يومًا بعد يوم، بمجرد تكيف ابننا مع الحياة المدرسية، وسوف يجد فيها بعد ذلك متعة، إذا نحن أحسنا قيادته فيها، وكنا أذكياء فى تعاملنا معه، وفى تناولنا لمشكلاته مع مدرسيه، ومع زملائه، ومع النظام الجديد الذى بدأ ينخرط فيه، وسوف يسهّل اتصالُنا بالمدرسة كثيرًا من الصعوبات التى تعترض سبيلنا فى هذا المجال.

والمهم هو أن تستمتع بطفلك أينما كان: فى البيت، وفى الشارع، وفى النادى، وفى المدرسة؛ لتقترب منه فيها جميعًا، فلا يحس بابتعادك عنه، أو انشغالك بسواه، فينصرف عنك، ويولى وجهه شطر غيرك.

# الفصل الخامس

# تعلم من طفلك ومعه

قد لا يرى بعضُنا غضاضة فى أن يستمتع بابنه، وفى أن يلعب معه، وفى أن يلاعبه، ولكن كثيرين منا سيتردّدون فى أن يتعلموا مع أبنائهم، فضلا على أن يتعلموا منهم.

إنها ثقافة العالم الثالث، التى تربّيْنا فى أحضانها، وصرنا نحن تعبيراً سيئًا عنها، عندما صارت مقاليد الأمور بأيدينا. لقد رُبِّينا فى إطار هذه الثقافة، التى لا يُسمح فيها للصغير بأن يكون له وجود يُذكر فى حضور كبير، أيا كان الكبير والصغير فى هذه المعادلة، بل إن المثل الأعلى فى هذه الثقافة هو أن الإنسان إذا تصادف وجوده فى مجتمع لا كبير له فيه، فإن عليه أن يشترى له كبيراً.

وإذا كان لِمثل هذا المَثل الأعلى وجاهته فى عصر كنا نحن فيه الصغار، فإنه لا يجوز فى عصرنا هذا؛ حيث يلعب أطفالنا اليوم بأجهزة معقدة، نخشى نحن الكبار الاقتراب منها، والتعامُل معها، إلا مضطرين.

لقد كانت ثقافةُ العصر الذى كنا صغاراً فيه ثقافة بسيطة غاية

البساطة، وكانت خبرة الكبار مفيدة لنا ونحن صغار، وما هكذا ثقافة عصرنا الذى نعيش فيه فى هذه الأيام. لقد تعقدت هذه الثقافة بشكل صار يمثل عبئًا علينا نحن الكبار خاصة، ويكفى أن تفتح جهاز التليفزيون أمامك لترى كل يوم تغييراً جديداً، ومخترعًا جديداً، وحياة جديدة، عندنا وعند غيرنا.

ولا أظن أن أحداً منّا سعيد بهذه التغيرات المتلاحقة والسريعة، ولكننا مضطرون إلى أن نعيش فى إطارها، سواء رضينا بها أو لم نرضَ، فَرِضانا أو عدم رِضانا لن يغيرَ من الأمر شيئًا، ولكن رضانا بها سيساعدنا على التكيف لها ومعها؛ فلا نكْتئب ولا نحزن ولا نشقى، كما هو حالنا نحن الكبار فى هذا الزمان فى كل مكان.

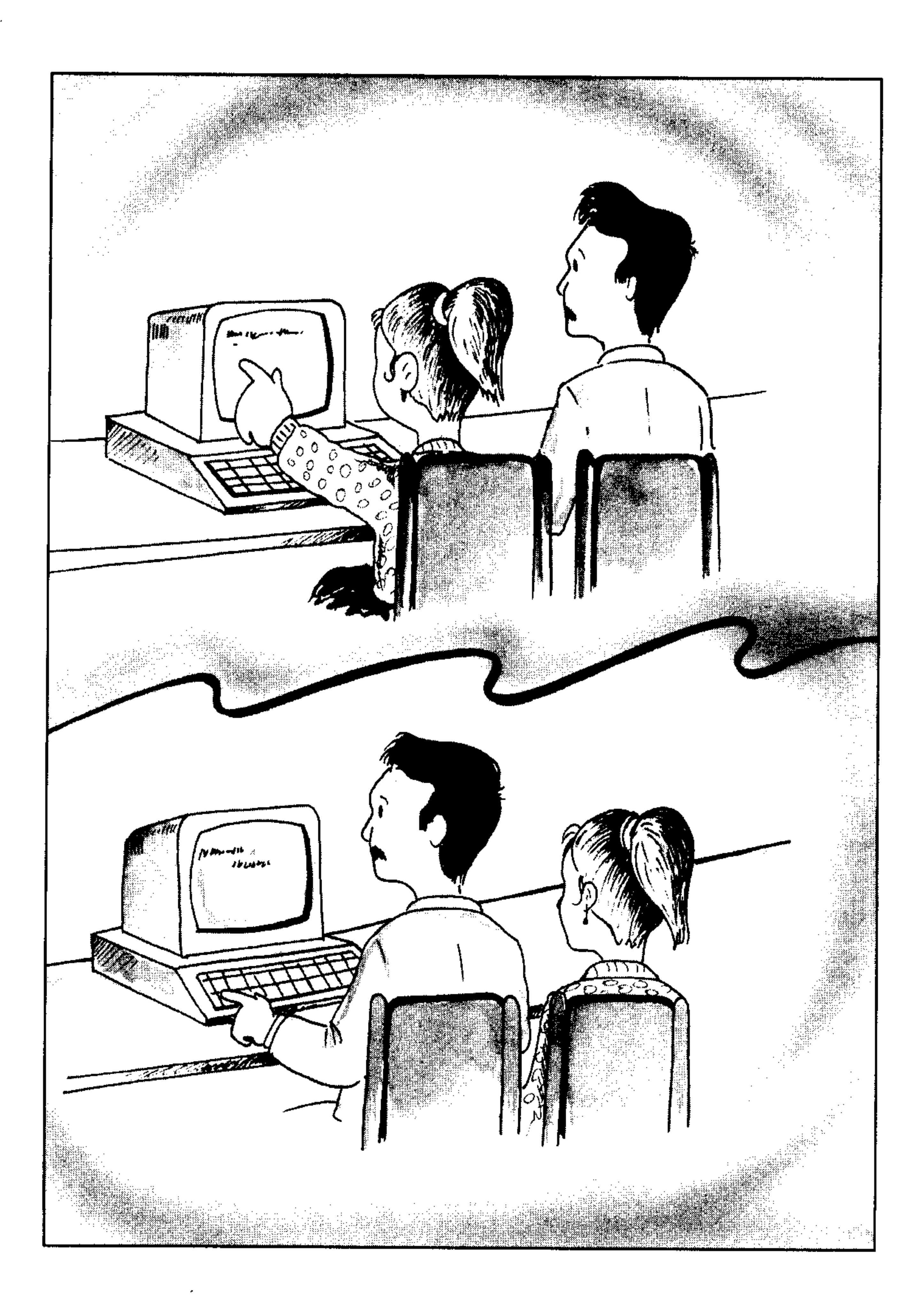
وإذا كان وقتنا لا يتسع لملاحقة هذه التغيُّرات، فإنه يتسع لصغارنا بطبيعة الحال، ويكون من الحكمة أن نفسح صدورنا لهم، لنتعلم منهم ومعهم، ولنناقشهم فيما يجرى، لنقيم بيننا وبينهم جسراً من الثقة والمودة نحن فى أشد الحاجة إليه فى تعاملنا معهم، وإلا تركناهم يقيمون هذا الجسر مع غيرنا، ربما ممن نحرص ألا يتعاملوا معه أصلا.

**إن لهم لغة فى الكلام اكتسبوها من هذه المتغيرات من حولنا وحولهم، وسيكون مفيدًا لنا ولهم أن نتعلم لغتهم، لنحاورهم بها، وليفتحوا لنا صدورهم ويتعلموا لغتنا التى نحرص على أن نعلمهم إياها.**

**وإن لهم أسلوبًا فى التعامل اكتسبوه من هذه المتغيرات قد لا يعجبنا، ولكننا مضطرون إلى أن نعرفه، لنحسن التعامل معهم، ولنعلمهم أساليبنا التى نريد أن نعلمهم إياها، فيتقبلوها منا.**

**لقد خُلقوا لزمان غير زماننا، على حد تعبير الإمام على بن أبى طالب – رضى الله عنه – ومن ثَم يكون من الحكمة أن نسابقهم إلى هذا الزمان، لنتفهمَه، ونعرف أبعاده؛ حتى نستطيع أن نقودهم إليه قيادة واعية حكيمة، لا أن نحول بينهم وبين اقتحامه.**

وإذا كان انشغالنا بتوفير حياة كريمة لأبنائنا مما يحول بيننا وبين أن نسابقهم إلى هذا الزمان الذى هو زمانهم، فلا أقل من أن نتفهم أبعاده من خلالهم، ليحسوا بقربنا منهم وثقتنا بهم، وليتفهمونا مثلما نتفهمهم، فيتقبلوا منا مثلما نتقبل منهم، وليتأكدوا عمليا من أن الحياة تعليم وتعلُّم، ومن أنها لا تكون ذات قيمة إلا إذا كانت



الحكمة ضالة الإنسان فيها، والحكمة لا تأتى إلا من الاستماع إلى الرأى الآخر، والقدرة على مناقشته.

والتعليم والتعلُّم هنا ليس تعليمًا للعلم وحده وتعلُّمًا له، بل هو تعليم للحياة وتعلُّم لها، حتى إن العلم ذاته إذا ابتعد عن هذه الحياة فإنه يكون قليل الفائدة عديم الجدوى عقيمًا.

**إن العلم لا يستمد قيمته من ذاته، وإنما هو يستمدها من قدرته على الانغماس فى الحياة، ومناقشة قضاياها، وحل مشكلاتها، لتكون حياة أفضل.**

**وإذا كان أبناؤنا قد كُتب عليهم أن يتلقوا فى مدارسهم علمًا بعيدًا عن الحياة التى يحيونها، مما كان من أسباب تعثرهم الدراسى، فإن بمقدورنا نحن أن نعالج هذا الخلل بأنفسنا، من خلال قيادتهم فى البيت، قيادة واعية رشيدة، نحو القراءة، فنحبِّبهم فيها، بأن نوجههم إلى القراءة، بحيث تكون فى خدمة قضايا الحياة الشاغلة لهم، ونناقشهم فيما يقرءون، لتقودهم القراءة إلى مزيد من القراءة، وبذلك ينمون وننمو معهم، ونتعلم معهم ونتعلم منهم كذلك.**

ولا يقف تعليم أبنائنا والتعلُّم منهم عند حد القراءة وحدها،

لأنهم فى مرحلة الطفولة المبكرة التى تلى مرحلة المهد لا يستطيعون هذه القراءة ولا يصبرون عليها، ومع ذلك فإن بمقدورنا أن نعلمهم ونتعلم منهم من خلال لعبهم، على نحو ما نتعلم من رسول الله ﷺ، ومما كان يفعله مع الأطفال تحديداً، فقد كان ﷺ - كما نقرأ فى سيرته العطرة - يشجع الأطفال على اللَّعب، بل ويلعب معهم أيضاً، ليعرف من خلال هذا اللعب عنهم، ويعلّمهم من خلال هذا الذى يعرفه أيضاً.

ولو أننا بدأنا تعليمنا لأطفالنا وتعلمنا معهم من هذه المرحلة المبكرة - مرحلة اللعب - ما وجدنا صعوبة فى الانتقال معهم من مرحلة اللعب - فى تلك المرحلة المبكرة من طفولتهم - إلى مرحلة التعلم من خلال القراءة فى المرحلة التالية لها، لأننا سننتقل معهم إليها برغبتهم ورضاهم، بل وبحبهم أيضاً، وبذلك نحقّق مع أطفالنا وبهم أمرَ رسول الله ﷺ فيما أخرجه البزار والطبرانى عن أبى بكرة رضى الله عنه : «اغْدُ عالمًا أو متعلماً، أو مستمعاً أو محبا، ولا تكن الخامس فتهلك».

أو فى مثل قوله ﷺ فيما رواه عنه ابن عمر - رضى الله عنهما -

فيـما أخرجـه ابن السنى : «قلب ليس فيـه شىء من الحكمة كـبيت خرب، فتعلموا وعلموا وتفقهوا، ولا تموتوا جهّالا، فإن الله لا يعذر على الجهل».

**إنهـا حيـاة التعلم الرحـبة التـى تقودنا إلى الله، ويجب أن نقـود أبناءنا إليها، ولن يتـيسر لنا ذلك إلا إذا كنا نحن صورة حـية لها، لا مع أنْدادنا أمـام أبنـائنا فـقط، ولكن مع أبـنائنا أيضًا، فنتـعـلم منهم؛ خاصة وأنَّ عندهم ما يمكن أن نتعلمه منهم بالفعل.**

ويكفى أننا سـنتـعلم فى تعـاملنا مـعـهم الصـبـر، ولكنه الصـبـرُ الجميلُ، كـما وصفه الله - سبحانه - على لسان نبى اللـه يعقوب عليه السـلام : ﴿ قال بل سولت لـكم أنفسكم أمرًا فـصبر جـميل، والله المستعان على ما تصفون ﴾ [يوسف : من ١٨].

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكـم أمرًا فـصبر جميل، عسى الله أن يأتينى بهم جميعًا، إنه هو العليم الحكيم ﴾ [يوسف : ٨٣].

**إننا إذا كنا نمثل التـراث الثقافى والحـضارى للأمـة، ونُعبّر تعبـيرًا حيـا عنه، فـإن أطفالنـا يمثلون المسـتقـبل، ومنـطقىٌّ أنْ نكون نحن منكفئين على الماضى ومتشـبثين به، وأنْ يكونوا هم مولّين وجوههم**

**شطر هذا المستقبل، ومنطقى أيضًا أن يكون بيننا وبينهم - نتيجة لذلك - اختلاف، قد يصل إلى حد الصراع، الذى يجب أن نستثمره لصالحنا وصالحهم وصالح الأمة.**

**إنهم فى حاجة إلينا، حتى لا ينْفلتوا منا فيَضِلوا ويُضِلوا، ونحن فى حاجة إليهم - أيضًا - حتى لا نجمد فنتخلف.**

**إن جيلَيْنا لابد أن يتواصلا، ولابد أن يتفاعلا، ولن يكون ذلك إلا بصبر منا عليهم، وهم يحاولون الانفلات منا، لنعيدهم إلينا برفق وبحب، فالمفروض فينا أننا خبرنا الصبر، وذقنا حلاوته، والمتوقع منهم هو أنهم لا يصبرون.**

ولو أننا هيأنا لهم برنامجًا جيدًا لملء وقت فراغهم، لعلمناهم الصبر أيضًا، فنحن نسمع عن اختراعات للأطفال عند غيرنا، ونسمع عندنا عن أطفال استطاعوا حفظ القرآن الكريم مثلا.

إن برنامجًا جيدًا نملأ به وقت فراغ أطفالنا، كفيل بأن يقربنا منهم، وبأن يجعلنا نرى ما زودهم الله - سبحانه - به من طاقات وإمكانات، نستطيع - إذا استثمرناها - أن نرى - بحق - نعمة الله فيهم.

# الفصل السادس
# شاور طفلك

يصف الله – سبحانه – الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون فى سورة الشورى بعدة صفات كلها طيبة، ومنها قوله – سبحانه – عنهم :

﴿ والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرُهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينُفقون ﴾ [الشورى : ٣٨].

إن هؤلاء الناس الطيبين يتوكلون على الله حقا، ولكنهم يأخذون بالأسباب، التى هى من عند الله أيضاً، ومن هنا كان أمْرُهم شورى بينهم، وكان أمر الله لرسوله ﷺ بأن يشاور أصحابه فى الأمور كلها، حتى يؤلف بين قلوبهم من جانب، وحتى يعلّم أمته أن تأخذ بالأسباب فى كل شئونها، على نحو ما نرى فى قوله سبحانه :

﴿ فبِما رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم، ولو كنتَ فظا غليظَ القلبِ لانفضّوا مِن حولِك، فاعفُ عنهم واستغفر لهم وشاوِرْهم فى الأمر، فإذا عزمت فتوكلْ على الله، إنَّ اللهَ يحبُّ المتوكلين ﴾ [آل عمران : ١٥٩].

وواضح أن المشاورة تكون بخصوص أمرٍ لم ينزل بشأنه وحى؛

لأن أمر المؤمنين مع ما نزل بشأنه وحى معروف، حدده القرآن الكريم بقوله سبحانه :

﴿ وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضَى اللهُ ورسولُه أمرًا أن يكونَ لهمُ الخِيَرَةُ من أمرِهم، ومن يعصِ اللهَ ورسولَه فقد ضلَّ ضلالا مُبينًا ﴾

[الأحزاب : ٣٦].

ومادامت المشاورة تتصل بأمر من أمور الدنيا لم ينزل بشأنه وَحْىٌ؛ فإنها تكون فنا يأمرنا الإسلام به، وبالوقوف على آلياته وإتقان مهاراته، ومعرفة أبعاده، وهو ما يجمعه كلَّه رسولُ الله ﷺ فيما أخرجه أبو داود فى مراسيله، والبيهقى فى سننه عن خالد بن معدان - رضى الله عنه -: «الحزم أن تُشاور ذا رأى، ثم تطيعه».

وذو الرأى المراد فى حديثه ﷺ هو العارف بالأمر الذى تتم المشاورة بشأنه، أو الخبير به، أو العامل فى حقله، كالفلاح بالنسبة إلى الزراعة، والطبيب بالنسبة إلى الأمراض، والمرأة بالنسبة إلى شئون النساء، والطفل بالنسبة إلى ما يخص الطفولة.

**وهكذا تكون مشاورةُ الأب لطفله فيما يتصل بأموره دليلَ ذكاء**

**ونُضج من الأب المشاور، وليست دليل ضعف فى شخـصيته، كما يشيع لدى كثـير من العوام والجهال فى مـجتمعاتنا العربيـة خاصة، وتكون المشاورة هى السبيل الأمثل لتـوقير الأب واحترامه عن حب له، وليس بسبب خوف منه لا يلبث أن ينقلب إلى تمرد عليه بمجرد زوال أسـباب هذا الخـوف، كـأن يشتـدّ عودُ الابـن، وتضعف بِنيـة الأب، كـما تطـالعنا الصـحف كثيـرًا فى أخبـار الحـوادث فى هذا الزمان.**

وتُعتبر مـشاورة الابن فيما يتصل بشـئونه أُولى خطوات إصلاح شـأنه، لأننا سنعلمـه من خـلال تحاورنا مـعه: كـيف يَزِن الأمـور، وكيف ينظر إلى أية قضية تُعرض له من منظوراتها المختلفة.

إننا سنعلمه أسلوب التفكير العلمى فى مـسائل حياته، مما يسهل لنا بعد ذلك توجيهه تعليمـيا، فيُجَنبنا مَشاق هذا التعليم، الذى صار اليوم الشغل الشاغل لكل أب، ولكل بيت.

**وسوف ننمى ذاتَه ونرتقى بها، وهو ما نحرص عليه بالضرورة، حتى يـشب معتـمدًا على مـا أودعه الله فـيه من مـواهب وإمكانات وطاقات؛ ليستغلّهـا جميعًا الاستغلالَ الأمثل، فـيكون كسبًا لنفسه،**

وكسبًا لنا، وكسبًا لأمته، وربما كسبًا للإنسانية كلها، التى ما تقدمت فى شتى نواحى الحياة إلا بإبدعات المبدعين من أبنائها، الذين نُمِّيت ذواتُهم تنمية طيبة على هذا النحو الذى اهتم به الإسلام كثيرًا، كما تعلمنا كُتب التاريخ والسير، وكما نستدل منها علي تعامل الرسول ﷺ مع الأطفال، وعلى تعامل صحابته - رضوان الله عليهم - وعلى تعامل التابعين، وتابعى التابعين، ممن انتصرت دولة الإسلام وانتشرت حضارته على أيديهم.

وإذا عودنا أبناءنا على أن نناقشهم فيما نتخذه من قرارات بشأنهم منذ طفولتهم المبكرة، فسوف نسعَد كثيراً بسرعة نضجهم كلما تقدمت بهم السن، حتى إننا سنجده أمرًا طبيعيا أن نشركهم بعد ذلك فى المسائل الخاصة بنا نحن، والتى نعتبرها مسائل كبار، وسوف نسعد بِرُؤَاهم، ونراها رُؤًى بِكرًا، فيها برَكة وفيها خير، وبذلك سوف نجنى - إن شاء الله - ثمار ما غرسته أيدينا حلوة شهية.

لقد دربناهم على التفكير الواعى الناضج المستقيم منذ البدايات، ومن ثَمَّ فإن الخير سيكون هو الثمرة - إن شاء الله - فى النهايات.

وسوف نجدهم دومًا عونًا لنا على الحياة، فلن يُرهقونا بطلبات لا

**تتحملها إمكاناتنا المادية خاصة، بل إننا سنجد فيهم عونًا لنا على الحياة، وسنجد عِبءَ هذه الحياة يخفُ عنّا؛ لنتفرغ لأمور تقودنا وتقودهم إلى مزيد من النجاح، ومزيد من الرزق، ومزيد من الخير.**

وسوف يتعلل بعضُنا بعِلل كثيرة لتركهم مشاورة الأهل والأبناء، سواء فيما يتصل بشئون الأطفال أنفسهم، أو ما يتصل بشئون الأسرة، ولابد أن تكون لتنحيتهم عن المشاركة فى هذه الشئون أسباب وجيهة لديهم، لعل من بينها: الإشفاق عليهم، وعدم تحميلهم هموم الحياة معهم، وهو سبب قد يبدو وجيهًا إلا أنه قاتل لمعنى الحياة لدى هؤلاء الأبناء، وهو قد يريحهم فعلا، إلا أنه يُشقيهم أيضًا، لما يعمق فى نفوسهم من معنى العجز عن تحمل المسئولية فضلا عن مواجهة الحياة.

**على أن ما نقرؤه من أخبار الحوادث فى الصحف اليومية تدلنا على أن أبناءنا لا يستسلمون لهذا العجز الذى يتصوره بعض الآباء فيهم، حيث تتلقفهم أيدٍ غيرُ رحيمة بهم، لتوجههم وجهات منحرفة، يثبتون بها لأنفسهم قدرتهم على الفِعل، وعلى تحمل المسئولية، وعلى الاقتحام.**

وأيا كان السبب الذى يبرر به بعضُ الآباء لأنفسهم أن ينفردوا باتخاذ القرارات دون أبنائهم، حتى ما يتصل منها بهؤلاء الأبناء أنفسهم، فإن مخاطر هذا الانفراد على الأبناء، بل وعلى الآباء أنفسهم فيما بعد، لا تُعدُّ ولا تُحصَى، ويكفى أنَّ ذلك مما يقيم بيننا وبينهم حاجزاً نفسيا، يصعُب إزالته فيما بعد، مما قد يقود إلى انفلات هؤلاء الأبناء منا؛ إن لم يؤد إلى ما نعتبره عقوقًا لنا، ونكون نحن الذين قُدْناهم إليه، ولو عن غير قصد منا.

**إنَّ أبناءنا قد يبدون لنا طيبين مسالمين، محدودى الخبرة، ولكنهم قد لا يكونون كما نراهم أو نتصورهم بالضرورة، بل إنهم قد يكونون فى بعض الحالات عكس ذلك تمامًا، وبُعدنا عنهم مما يحول بيننا وبين أن نراهم على حقيقتهم، فيزيد البُعد النفسى بيننا وبينهم، ويكون ما نسمع عنه ونقرؤه ونستغربه والعياذ بالله.**

**أما عندما نقترب منهم، فإننا سنراهم على حقيقتهم، وقد نراهم مُزعجين لنا، ولكننا يجب أن نستمتع بهذا الذى نراه إزعاجًا، وأن نوجههم من خلال ما نراهم عليه إلى ما نحب أن يكونوا عليه.**

إننا إذا ابتعدنا عنهم بحجة أنهم مزعجون، فإنهم سيكونون

أسعد ببُعدهم عنا، بحجج أخرى نَضِيق نحن بها عندما نسمعها منهم، ولكنها تسعدهم، ثم تكون النتيجة أن تزداد الهُوَّة بيننا وبينهم اتساعًا.

قد تكون لنا - نحن الكبار - خبراتنا الطويلة والعريضة والمعقدة والمفيدة أيضًا، وهى ميزة لابد أن أبناءنا يحسدوننا عليها ويتمَنَّوْنها لأنفسهم، لو أننا قبِلناهم على علاتهم، بخبراتهم المحدودة.

على أن هذه الخبرات الطويلة والمعقدة والمفيدة وليدة التجربة الذاتية لكل منا فى الحياة، ومن ثَمَّ فإنهاستكون ضارة بغيرنا إذا أردنا فرضها عليهم، ويكون المفيد فى هذه الحالة أن ندعهم يمرون بخبراتهم الذاتية، ونساعدهم على اجتيازها بأكبر فائدة ممكنة، وبأقل تضحيات، بما توافر لدينا من خبرات وتجارب.

وكلنا يعلم أن رسول الله ﷺ كان حريصًا على تفجير المواهب والإمكانات لدى أصحابه - رضوان الله عليهم - وخاصة مواهب الشباب منهم؛ فقرأنا فى البدايات عن الدور الذى قام به «على بن أبى طالب» فى ليلة الهجرة، وعن الدور الذى قامت به «أسماء بنت أبى بكر» فى عملية الهجرة من مكة إلى المدينة،

وقرأنا فى النهايات عن توليته ﷺ لأسامة بن زيد قيادة الجيش، وهو لم يصل بعد إلى سِنِّ العشرين، وهى البعثة التى رفض أبو بكر الصديق تغيير قيادتها، فأنفذها على النحو الذى شكلها عليه الرسول ﷺ.

لقد كان ﷺ يثق بإمكانات أطفال المسلمين وشبابهم، وعلينا أن نقتدى به، لننجو وينجو أطفالنا؛ وتسير أمتنا إلى الأمام، بعد أن نُحَوِّل ما أودعه الله - سبحانه - فيهم من طاقات وإمكانات إلى عوامل بِناء، كما كانت فى هذا التاريخ الإسلامى المبكر.

# الفصل السابع

# حَمّلْ طفلك المسئولية

إن من أكبر المشاكل فى حياتنا مع أبنائنا على وجه العموم، ومع أطفالنا خاصة أننا نريد أن نراهم كما نحب لهم أن يكونوا، لا على النحو الذى فطرهم الله – سبحانه – عليه. وإذا تصرّفوا على النحو الذى نريدهم أن يتصرفوا عليه، فلماذا تكون حاجتهم إلينا؟ وعلامَ نُؤجَر؟

**ولأننا نريد أن نرى أبناءنا صغارًا على نحو مختلف عن ذلك النحو الذى يستطيعون أن يكونوا عليه، فإننا نحمّلهم فوق ما يُطيقون، ونحمّل أنفسنا أيضًا فوق ما نطيق، وتكون النتيجة أننا نُفسد عليهم حياتهم، مثلما نُفسد على أنفسنا حياتنا، ليبدأ مسلسل مشاكلنا معهم، ومشاكلهم معنا.**

إنهم لا يستطيعون أن يكونوا إلا أطفالا، ونحن لن نستطيع أن نتعامل معهم بنجاح إلا من خلال طفولتهم تلك، التى يراها بعضنا بريئة، ويراها بعضنا الآخر غير ذلك، والتى رُكِّبت فيها المعالم

الأساسية لشـخصية ابننا، فلا نستطيع قـياده إلا من خلالها، ومن ثَمَّ يكون فهمنا الحقـيقى له، هو مفتاح نجاحنا فى قيادته نحـو المستقبل الذى ننشده له.

**ولقـد تعودنا فى بيئـاتنا العـربية - خـاصـة - أن نخطط لأبنائنا حـياتهم منذ بدايـات تعاملنا مـعـهم، فنختـار لهم مـا يلبَسون، ومـا يأكلون ويشـربون، ونختـار لهم حتى مَن يُصـادقون، ومَن يحـبُّون ومَن يكرهون، مثلما نختار لهم الطريقة التى يتعاملون بها مع الناس والأشـياء، ناسين أننا بذلك نقـتل مـبادرتهم الفـردية قتـلا، مع أنهم مبادِرون، وقادرون على المبادأة وعلى الفعل.**

**وقد يكـون تدخلنا فى شئـون أبنائنا على هذا النحو الكـامل أمرًا مطلوبًا فى سنى المهد وما بعدها بقليل؛ لتأمين سبُل هذه الحياة، التى لا يقدرون - بالفعل - عليها بدونـنا، ولكنهم ما إن يصيروا قادرين على الحـركة؛ حتى يصـيروا أيضًا قـادرين على الفعل، وعلـى تحمل مسئولية أنفسهم تدريجيا؛ تمهيدًا لاستقلالهم الطبيعى عنا.**

إن تجاربنا المحـدودة مع أطفالنا تدلنا على أنهم يرغبـون - بالفعل - فى تحمل المسئـولية، بمجرد حـركتهم المحـدودة فى البيت من حولنا،

وعلى أنهم يغضبون إذا لم نحمِّلهم بعض المسئوليات البسيطة، كإحضار كوب ماء، أو نحو ذلك من الأعمال التى نحرمهم من القيام بها لأسباب عدة، فإذا بهم يسعَدون إذا تحمَّلوها، وتثور ثائرتهم إذا حرمناهم منها.

وسوف تكون سعادة أطفالنا بالغة إذا حملناهم مسئولية ترتيب أماكن حياتهم، كالمكان الذى ينامون فيه، والمكان الذى يجلسون فيه، واللُّعب التى يلعبون بها، على قدر ما يطيقون، دون أن ننتظر منهم الكمال فيما يصنعون - بطبيعة الحال -، ولكن الصبر عليهم وتعليمهم، هو بداية الطريق إلى هذا الكمال الذى ننشده.

**وسوف نرى أن هذه المسئوليات البسيطة التى يتحملها أطفالنا فى البدايات، هى السبيل إلى تحمُّلهم أعباء التعلم فى المدرسة عندما يلتحقون بها، فلا يُتعبوننا فى هذا التعليم، كما نرى ما يجرى فى هذا الزمان، حيث يذاكر الكثيرون منا عن أطفالهم، ويؤدون عنهم الواجبات، وتكون النتيجة هى الدروس الخصوصية وغيرها؛ مما أفقد التعليم فى بلادنا بهجته ومعناه، فصار المزيد من التعليم يعنى مزيدًا من الاعتماد على الغير، ومزيدًا من فقد الاستقلالية، وتعطيلا**



**بالتالى لنمو أبنائنا نموا سليمًا مستقيمًا، يقدرون به على حمل أعباء الحياة من بعدنا كما حملناها نحن، فضلا عن قدرتهم على دفع عجلة الحياة إلى الأمام، لتسير الأمة من خلالهم مع السائرين.**

وسوف نرى كذلك أن عبء أطفالنا سيكون عبئًا أخف، وكذلك سيكون عبء الحياة كلها، وستكون الحياة كلها أكثر إمتاعًا لنا ولأبنائنا جميعًا، إذ يكفينا فقط أن نكون لهم قدوة طيبة فيما يفعلون، فهم يبدءون بتقليدنا إذا أحبُّونا، وبذلك يتحولون - بفضل من الله - من عبء علينا إلى عون لنا.

وإذا كانت مشكلة الخدم اليوم مشكلة كبرى فى البيوت، لا تقل خطرًا عن مشكلة الدروس الخصوصية، فإن مرجع هذه المشكلة بالدرجة الأولى إلى أننا أصبحنا نحمل عبء الحياة فى المنزل وخارجه، ونحرم أبناءنا من أن يحملوا معنا هذا العبء، ربما عطفًا عليهم ورحمة بهم، وربما لأى اعتبار آخر، فعلينا أن ندرك خطأنا فى هذا الذى نفعله، باعتباره - كما سبق - حرمانًا لهم من تحمل المسئولية، التى يستمتعون بتحملها، على عكس ما نتصور.

ولو أننا حمَّلنا أبناءنا المسئولية معنا منذ طفولتهم المبكرة، وعلى

قدر ما يطيقون كما سبق، فسوف نجدهم يستمتعون، ونجدهم يُريحوننا فى الوقت ذاته من مشكلة الخدم تلك، التى صارت مشكلة مؤرقة بالفعل، لا بسبب الأجر المرتفع الذى يرهق ميزانية الأسرة فحَسْب، ولكن بسبب ما ينجم عن وجود خادم أو خادمة في البيت من تخريب متعدد الصور، عاشه بعضنا فعلا، وسمع بعضنا الآخر عنه من أصدقائه وأقاربه، وقرأنا جميعًا كثيراً منه فى صفحات الحوادث فى الصحف.

ولابد أن نتوقع أن تكون هناك خسائر مادية من كسر أشياء، وإتلاف أشياء أخرى، إلا أن هذه الخسائر يمكننا التقليل منها قدر الإمكان بأن نبدأ بتمكينهم من الأشياء غير القابلة للكسر، لا من أجل أثمان هذه الأشياء وحسب، ولكن من أجل سلامة أطفالنا أيضًا.

ومهما تكن الخسائر فإنها لن تكون شيئًا يُذكَر إذا ما قورنت بأجور الخدم التى صارت باهظة، إضافة إلى ما يسرقونه، وما يدمرونه عن عمد من تحف ومعدات غالية الثمن، عزيزة على أصحابها، لما تحمله من ذكريات غالية بالنسبة إليهم فى أحيان كثيرة.

كما أن هذه الخسائر المادية مهما تبلغ، فإنها لا تساوى شيئًا إذا ما قورنت بالفوائد التى ستعود على أبنائنا فى العاجل والآجل جميعًا، سواء وهم معنا فى البيت، أو عندما ينتقلون إلى المدرسة، أو عندما يتخرجون فى المدرسة إلى ساحة الحياة على اتِّساعها.

**وهكذا يجب ألا ننشغل بسبب ما سيحدثه أطفالنا من خسائر مادية، لأننا نحدث مثل هذه الخسائر أيضًا، وكذا الخدم يحدثونها، وإنما يجب أن ننشغل بسلامة أبنائنا، فلا نمكنهم فى البدايات من أكواب أو قوارير زجاجية، أو من أشياء حادة، وإنما نمكنهم من هذه الأشياء بالتدريج، وتحت رقابتنا، وتكون الفرصة سانحة فى كل الحالات لتعليمهم، وللاستفادة من أخطائهم، وسوف يكونون – بإذن الله – عند حسن ظنِّنا، على عكس ما يتوقع الكثيرون منا.**

إن الخوف المفرط عليهم مما يشل حركتهم ويعطل قدراتهم وإمكانياتهم، ومما يعطل نموهم الذى هيأهم الله – سبحانه – له، مما يُعد فى حد ذاته كفراً بنعمة الله التى أنعمها عليهم وعلينا، فى الوقت الذى نجد فيه تمكينهم من الانطلاق والحركة تحت إشرافنا ورقابتنا أول الأمر، وتعريضهم لأن يخطئوا ويصيبوا، مما سيهيىء لنا

ولهم فرص النقاش والحوار، ومما سيتيح الفرصة المناسبة لأن يكون لنا دور تعليمى فى حياتهم، يسعون هم إليه ولا نفرضه عليهم فرضًا، ويومئذٍ ستكون لحياتهم قيمة ومعنى، وسيسعون إلى التقدم بها إلى الأمام، مما سيكون مصدر سعادة لنا.

**وعندما يجدون حياتهم لها قيمة ومعنى على هذا النحو، فإنهم سيفكرون، وسيناقشون، وسيقرءون، وسيبحثون، وسوف يبتكرون ويبدعون، مما ينتقل معهم إلى المدرسة عندما يلتحقون بها، وإلى كل مدرسة ينتقلون إليها، ولن تكون هذه المدرسة فى هذه الحالة كما هى اليوم سجنًا نقيد أطفالنا لنحملهم إليه، وإنما ستكون مجرد تجربة جديدة من التجارب العديدة التى عودناهم منذ نعومة أظفارهم على خوضها، وعلى قبول تحديها، وسوف يسعَدون بهذا التحدى سعادتهم بتحدى كل تجربة سبقتها.**

وسوف تتحول هذه المدرسة من قيد وسجن إلى مجال للحركة والإبداع، مما سيحل لنا كثيراً من المشاكل التى نعانى منها مع أولادنا فى المدرسة، فسوف نجدهم يعرفون كيف لا يخافون، وكيف يتكيفون، ثم كيف يقتحمون، وكيف يتفوقون فى الدراسة

وفى غير الدراسة من ألوان النشاط الذى تقدمه المدرسة، سواء ما يخدم المادة التعليمية من هذا النشاط، أو ما يخدم البيئة، أو ما يفتق المواهب الخاصة بهم.

**إنهم سيذهبون إلى المدرسة ليكونوا عونًا لها فى أداء رسالتها، لأنهم سيذهبون إليها محبين لها، ومحبين للعلم الذى تقدمه، ومحبين لمن يقدمون لهم هذا العلم، ولإدارة المدرسة التى تهيِّئ لهم فرص التعلم والحركة والنشاط، مما سيحول جو المدرسة إلى جو مختلف، يشذ فيه مَن يغش، لأنه لن يغش إلا نفسه، وتقل فيه الدروس الخصوصية؛ لأنها ستكون دليل عجز وَعِيٍّ لن يحبوا أن يظهروا عليه أمام أنفسهم، وأمام أقرانهم، وأمام مدرسيهم، وأمام ذويهم فى المنزل.**

**ولأنهم ذاهبون إلى المدرسة محبين لها، فإننا سنرى أبناءنا متعاونين معها ومع إدارتها، محافظين على أثاثها، داعمين لها بكل ما يملكون، بما فى ذلك الدعم المادى على قدر ما يستطيعون، ومتعاونين أيضًا مع بعضهم على حل مشكلات تعلمهم، لأنهم سيحبون أن يتعلموا بأنفسهم، مما سيجعل للمدرسين دورًا جديدًا،**

**سيضطرون إلى أن يُعَدُّوا له، ليكون لهم دورهم القيادى فى هذا النظام الجديد واللازم.**

ولأن أبناءنا سيذهبون إلى المدرسة محبين لها، وراغبين فى التعلم فيها فسيكون للمكتبة المدرسية دور مختلف، هو الدور الأساسى فيها، وسيكون لأمين المكتبة فيها دور مختلف عن الدور الذى يقوم به الآن فى نظم تعليمنا العربية، وستكون هناك ورشة ومعمل وملاعب، لتتخذ مواقعها محل الفصل التقليدى الجامد، الذى صار يضيق فى مدارسنا بكل شىء، وسيكون للمعلم وضع جديد أكثر مرونة، وأكثر حركة، وأكثر إيجابية، وأكثر احتراماً بالتالى، وأكثر إمتاعاً له ولأبنائنا جميعاً.

وسيجد المعلم نفسه أباً، يقوم فى المدرسة بنفس ما رأينا الأب يقوم به فى البيت، فى فصول الكتاب السابقة.

وإذا كنا قد بدأنا – كما سبق أن قلنا – شكر الله – سبحانه – على نعمة الابن التى أنعم بها علينا بالعقيقة ابتداء، فإننا لا بد أن نواصل هذا الشكر كلما ظهرت على الابن نعمة من نعم الله، فنشكره عندما يتحرك الابن، وعندما يغادر المهد، ونشكره عندما

يتحـرك لسانُه بالنطق، ونشكره عندما يحـرك عقله ويفكر، ويكون شكر الله – سبحانه – فى كل حالة بتنمـية هذه النعمة، حتى تصل إلى أقـصى طاقاتهـا، ونمكنه من أن يتـحـمل المسئـوليـة، حتى يكبـر فيحـمل عنا هموم الحيـاة التى حملناها عليه صغـيراً، ولعل ذلك هو الترجـمة الحرفـية لقـول الله – سبحـانه – لكل ابنٍ – عن والديه – عندمـا يصيـر راشداً قـادراً على حمل الحـياة والاضطلاع بتـبِعاتهـا وتحمل أعبائها:

﴿ واخفض لهـما جناح الذل من الرحمـة، وقل رب ارحمهـما كما ربيانى صغيراً ﴾ [الإسراء : ٢٤].

# الفصل الثامن

# طفلك إضافة إليك

الأصل فى حياة كل الكائنات الحية أن الوليد إضافة إلى حياة الكائن الحى الذى تشكَّل هذا الوليد من بعض عناصره، بل إنه فى بعض الحالات يحل محله فى الحياة، كما نراه يحدث فى حياة النحل.

ولا يشذ الإنسان عن هذه القاعدة، بل إن الإنسان يكون أكثر إحساساً بها من سائر المخلوقات والكائنات الحية، بوصفه مخلوقاً عاقلا، يعرف معنى الحياة ومعنى الموت، ويعرف معنى الخلود ويرغب فيه، مما كان منزلقه إلى العصيان، على النحو الذى يوضحه لنا القرآن الكريم فى قصة خلقه الأُولى فى قوله تعالى:

﴿ وإذ قُلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى* فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يُخرجنكما من الجنة فتشقَى* إنَّ لك ألا تجوع فيها ولا تعرَى* وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحَى* فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يَبلَى ﴾ [طه : ١١٦ – ١٢٠].

إن الإنسان يتميز عن سائر المخلوقات بأنه حامل ثقافة ومعبر عنها في الوقت ذاته، مما يجعله أكثر إحساساً بهذا الأمر من غيره من المخلوقات، لضمان استمرار ثقافته مِن بعده، وإلا اعتُبر في عُرفه (أبتر) أي مقطوعاً، على نحو ما نقرأ في أسباب نزول سورة الكوثر، فقد كان أبو لهب يعتبر رسول الله ﷺ مقطوعاً، أي ليس له ذرية تحمل رسالته من بعده، فنزل القرآن الكريم بالرد على أبي لهب في قول الله تعالى : ﴿ إنا أعطيناك الكوثر* فصلِّ لربك وانحَر* إن شانئك هو الأبتر ﴾ شانئك: أي مبغضك وكارهك؛ لأن الرسول ﷺ موصول العقبى بكل المسلمين من بعده، الذين حملوا رسالته، وبلغوها عبر الزمان والمكان.

وفي ضوء ذلك نفهم دعاء زكريا - عليه السلام - واستجابة الله - سبحانه - لدعائه في قول الله سبحانه :

﴿ وزكريا إذ نادى ربه رب لا تذَرني فرداً وأنت خيرُ الوارثين* فاستجبنا له ووهبنا له يحيى وأصلحنا له زوجه، إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغَباً ورهَباً وكانوا لنا خاشعين ﴾ [الأنبياء : ٨٩، ٩٠].

وإذا كانت هذه هى فطـرة الله التى فطر الناس عليهـا، فإن النظر إلى القضية بمنظور آخر مما يفسد الفطرة ويفـسد الحياة جميعاً، كما نرى فى مجتمعات الرفـاهية المادية فى الغرب، - رغم هذه الرفاهية المادية - حـيـث لم تسـتطع القـطط والكلاب التـى حلّت مـحل الأطفال فى الحـياة أن تسـد الفراغ فى حـياة الغربـيين، ولا أن تجعل لحيـاتهم معنى، مما صار يـهدد حضارة الـغرب وتراثه فى نظر كثـير من فلاسـفته ومـفكريه، ممن ينتظرون أن يأتى الخـلاص من الشرق، برؤاه المسايرة للفطرة والمتسقة معها.

**ومعنى أن الطفل إضـافة إلى الحياة؛ أنه لا يمكن أن يكـون مجرد قابل بليد للتراث الثقافى، فـهو يبدو أمامنا قادرًا منذ بدايات إدراكه على تشربه وتمثلـه، حتى يكون تعبـيراً حيـا عنه، وإنما هو قادر على تجديده وتطويره، بل وراغب فى ذلك أيضًا.**

**إن طفلك الذى يبـدو كـمـا لو كـان يتـأهب لأن يكون صـورة منك وتجـديداً لك، بما يـقوم بـه من مـحـاكاةٍ لـك وتقليـد فى كل شىء؛ مما يكون مصدر إزعاج لك أحيانًا، إنما هو يتأهب فى الحقيقة ليـستـقل عنك، وليكون نـسيجَ وحـدِه، وبالتـالى فـهو يتـأهب لأن**

**يكون تجديدًا لك فى الحقيقة وإضافة إليك.**

**إنه يتخذ منك أرضًا ينطلق منها إلى حيث يحب، وحيث تحب له، فالتفت إليه وساعده فى الوصول إلى هذا الذى تحب ويحب، وإلا وصل إلى عكس هذا الذى تحب له وتتمنى.**

إن كل الآباء يحبون أن يكون أبناؤهم أفضل منهم، وكثير من الآباء الذين تعثروا فى خطوات حياتهم لأسباب بعينها، يجدون العَزاء - كلَّ العزاء - عما كان لهم، فيما يبذلونه من جهد، ليمكنوا أولادهم من النجاح على طريق الحلم الذى تعثروا على طريق تحقيقه.

وليكون ابنك أفضل منك، كما تحب له أن يكون، ما عليك إلا أن تبدأ معه من حيث هو، فتحبو معه وهو يحبو، وتحلم معه وهو يحلم، وتلعب معه وهو يلعب؛ لتزداد منه اقترابًا، حتى يحبك ويتعلق بك، ويحاول أن يكون صورة منك، لتتكون لديه الأرضية التى يستند إليها، لينطلق منها إلى حيث تتمنى له.

**ولا تنس أن اللعب بالنسبة إلى طفلك الصغير ليس لهوًا ولا**

**عـبثًا، بل هو نشــاط وحركـة، يتم توجـيه الطفل تربويا من خـلاله، ومن ثَمَّ كان طريقًا من طرق التربـية، لا يقل قيمة عـما يقدم للطفل من علوم ومعارف عندما يُطيق عقله، وبالقدر الذى يطيقه منها.**

بل إنَّ هذا اللعب فى مراحل نمو الإنسان المختلفـة يُعتبر طريقًا من طرق النمو المختلفة، التى يجب أن يظل الإنسان حريصًا عليها، ومن ثَم فإن هذا اللعب يكون فـرصة لك - أيضًا - لتعيش حيـاتك كما يجب أن تعـيشـها، وتجـدد هذه الحيـاة أيضًا، بعـد أن شغلتنا همـوم الحيـاة عن أنفسنا، فـضاعت فى زحـامها مـثل هذه الأمور البـسيطة والواجبة.

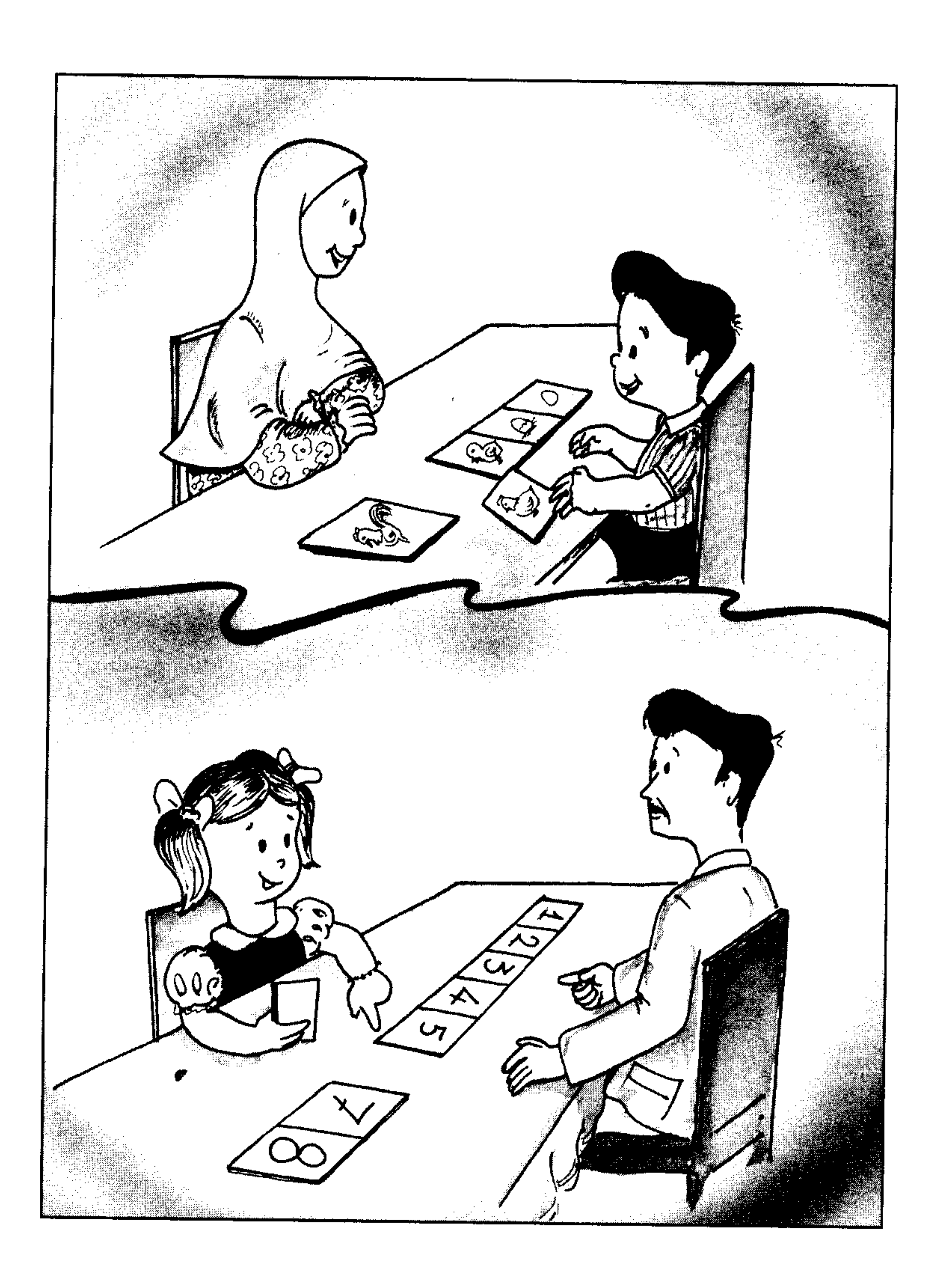
واللعب المتعـارف عليه لون من ألوان النشاط التـربوى الهادف، يمكن أن يكون محور الحيـاة التربوية فى الطفولة المبكرة، بل إن ثَمة من يرى أن اللعب يمكن أن يكون مـحور العمل التـربوى كله، بعد تحويل هذا اللعب قليلا، ليكون نشـاطًا يتم التعليم عن طريقه، حيث نسمع فى حياتنا العربية منذ مـنتصف هذا القرن العشرين تقريبًا عن التربية من خلال النشاط.

**ومن خلال مـشاركـتك طفلك فى لعبـه فى البدايات، ونـشاطه**

**عندما يكبر، ستزداد فهمًا له، ويُمكّنك هذا الفهم من ضبط حركاته، وتنمية مهاراته، مما لابد أن يفيده فيما بعد فى الإمساك بالقلم وهو يكتب مثلا، أو وهو يسير فى الطريق إلى المدرسة عندما يلتحق بها، أو مما لابد أن يفيده فى ضبط سلوكه عمومًا بعد ذلك، فى المدرسة وبعدها.**

**وعلى طريق اللعب أو النشاط، ومشاركتك له فيه، يمكن أن تعلّمه كيف يخطط، وكيف يفكر، وأن تقوده إلى القراءة عن اللُّعب المختلفة، وستجد نفسك - أيضًا - تستعيد مهارات وفنيات وآليات كنت تحرص عليها، ولكنها أخذت تضيع منك فى زحام الحياة.**

وهكذا يكون طفلك بكل المقاييس إضافة إليك، لو أنك اعتبرته نعمة من الله - سبحانه - أنعم بها عليك، وأردت شكره عليها، بأن تُحسن استقبالها، وتُحسن تقبُّلها، وتُحسن رعايتها، ولم تكن من أولئك الذين ينظرون إليه بمنظار آخر وفد علينا من خارج حدودنا، ومن خارج ثقافتنا، ومن خارج ديننا جميعًا، يشقى به القوم هناك ولا يسعَدون، رغم أنهم يحاولون تصديره إلينا بشتى السُبل.


1
2
3
4
5
7
8

# الفصل التاسع

# طفلك إضافة إلى الأمة

إذا كان رَحِم الأم يعتبر عالَم الطفل الوحيد فى مرحلة الحمل، فإن هذا العالم يتسع بعد الولادة، ليكون صدر أمه ومهده، ثم يُضَم إليهما أبوه وإخوته فى داخل البيت، ثم يمتد تدريجيا خارجه حتى يصل إلى المدرسة ويخرج إلى المجتمع، ليكون فى كل مرحلة يمر بها إضافة إلى المجتمع الذى ينتقل إليه، حتى يكبر فيكون ملكًا للأمة وإضافة إليها، إن هى أحسنت تهيئة سُبل نموه نموا سليمًا مستقيمًا فى مراحله المختلفة تلك، وإلا كان عبئًا عليها فى النهاية.

وكما هيأ الله - سبحانه - للطفل فى رحِم أمه الجو المناسب والبيئة الصالحة والتغذية المناسبة، فإنه - سبحانه - يهيئ لبن الأم ليتدرج مع الطفل بعد مولده، ليكون الأكثر مناسبة لمرحلة نمو الطفل، ويأمر الله المسئولين عن رعايته بتوفير الجو المناسب لتنشئته، حتى فى أسوأ الحالات التى يمر بها الأبوان، على نحو ما نرى فى مثل قول الله - سبحانه - يأمر الرجال :

﴿ أسكِنوهن مِن حيث سكنتم من وُجْدِكُم ولا تضاروهن لتُضَيِّقوا عليهن، وإن كن أولات حمل فأنفِقوا عليهن حتى يضَعن حَمْلَهن، فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائْتَمِروا بينكم بمعروف، وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى* لينفق ذو سعة من سَعَتِه، ومَن قُدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله، لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها، سيجعل الله بعد عُسر يُسرا ﴾ [الطلاق : ٦، ٧].

والطفل فى نهاية المطاف إضافة إلى الأمة، ومن ثَم كانت عناية الدولة من قديم بالطفولة، حتى لقد اعتبرت مجتمعات قديمة مختلفة الأطفال ملكًا لها من ساعة مولدهم، واعتبرت الأسر التى ينتمى إليها هؤلاء الأطفال مجرد أمينة عليها، تقدم لها أقصى ما تستطيع من عون ومساعدة، لتمكنها من القيام بما اؤتمنت عليه، وتحاسبها على ذلك.

وعلى أكتاف أولئك الأطفال الذين اعتبرتهم هذه المجتمعات القديمة هذا الاعتبار، واهتمت بهم كل هذا الاهتمام؛ قامت الحضارات القديمة، وتوسعت الإمبراطوريات، عندما صار هؤلاء الأطفال رجالا قادرين على حمل المسئولية، على النحو الذى رباهم

المجتمع عليه، لتحقيق أهداف التوسع التى خطط لها النظام المسيطر على هذا المجتمع.

وإذا كانت الأسرة هى الخلية الأُولى من خلايا المجتمع؛ فإن معنى ذلك أن منظور الأبوين إلى الأطفال لا يأتى من فراغ، وإنما هو يتسرب إليهما من خلال النظام الاجتماعى الذى يعيشان فى إطاره، والذى تعمل فى إطاره أيضًا المدرسة وغيرها من وسائل التعليم والتثقيف والتدريب، التى لها من التأثير فى الحياة اليوم مثل ما للمدرسة وأكثر، والتى تساهم مع النظام التعليمى فى تشكيل العقل الجمعى للأمة، وفى تشكيل منظوره إلى مختلف المسائل، ومنها: مسألة الطفولة وما يتصل بها من رعاية.

**ومعنى ذلك أن هناك تناغُمًا يجب أن يكون بين ما تراه لطفلك وبين ما يراه المجتمع لأبنائه، وإلا كنت كمن يعده لمجتمع آخر، وهو ما لا يمكن أن نفكر فيه مطلقًا بطبيعة الحال؛ لأن ذلك مما يقوده إلى سوء التكيف فى المستقبل مع مجتمعه، الذى تعده أساسًا للعيش فيه، مما يعود عليه وعليك وعلى المجتمع بالضرر.**

ويُفيدك فى الوقوف على ما يراه المجتمع ويريده من أبنائه الصغار،

أن تنتقل به ومعه بين مرافق المجتمع المختلفة، فلا تتركه يذهب وحده إليها، سواء فى ذلك جماعات الرفاق، ودور العبادة، ومراكز الأطفال والشباب والمدرسة، إضافة إلى وسائل الإعلام والتثقيف؛ لتساعده على تنمية شخصيته مِن خلالها، ومن خلال ما يجب أن يكون بينك وبينه من حوار مستمر حول ما تقدمه. إنك بذلك تنمى شخصيته فى الاتجاه الصحيح، حيث تساعده على أن يكون فاهمًا للحياة التى سيتصل بها وسيتفاعل معها، وبذلك تساعده على أن يكون عنصراً فاعلا فى المجتمع، قادراً على التأثير فيه، وبذلك يكون بالفعل إضافة إليه.

**لقد كان ابنك فى البيت تحت تأثيرك وتوجيهك، فأصبح بعد خروجه من البيت تحت تأثيرات شتّى، لن يستطيع بإمكاناته المحدودة أن يواجهها وحده، مما يتطلب منك مزيداً من الجهد، ليحس بأنه لا يقابل ما يقابله وحده.**

**وسوف تكون أنفاسك معه خارج البيت عونًا له على أن يجتاز ما يجتاز من تجارب، وعلى أن تكون هذه التجارب مما يضيف إليه، دون أن يثقل كاهله.**

وسوف تكون أنفاسك معه فى المدرسة خاصة دعمًا له، على ألا يقودك اهتمامك بابنك فى المدرسة إلى التدخل فى شئونها، تدخلا يزعج المدرسة والمدرسين وابنك جميعًا، مما لابد أن يكون له انعكاسات سلبية على ابنك، لعل من أبرزها أنك بذلك تعوق حركته، وتمنعه من أن ينمو كما ينمو أقرانه، مما يُحوِّلك بالنسبة إليه إلى أن تكون عبئًا عليه، أكثر من أن تكون عونًا له.

**إنك فى المدرسة تراقبه من بُعد، وتناقشه، وتستغل حبه لك لتقيم مصالحة بينه وبين المدرسة والمدرسين، وسوف تلجأ إلى المدرسين كثيرًا لتعرف عنه وعنهم ما سوف يجعلهم يفرحون به ويهتمون، على أن يكون لجوؤك هذا هادفًا إلى التعلم منهم ما أمكن، وطلب نُصحهم، فهم يعرفون عن الأطفال أكثر مما تعرف، وسيفيدك أن تسمع منهم إذا استطعت أن تفتَح صدورهم لك، بينما ستخسر كثيرًا إذا أنت تدخَّلت فى أعمالهم تدخلا تتحول معه إلى مصدر إزعاج لهم.**

ولا تنس دائمًا وأنت تتعامل مع المدرسين أنهم بشر، وأنك إذا كان لك عند بعضهم ابن واحد، فإن لدى كل منهم عشرات مثل

ابنك، فكن لهم عونًا لتحصل على عونهم، ولاتكن عليهم عبئًا فيملُّوك ويضيقوا بك، مثلما يضيق بك ابنك ذاته، الذى يهمه أن يحس بأنه قادر على الاعتماد على نفسه مثل أقرانه.

وسوف تلاحظ - من اتصالك بالمدرسة والمدرسين - أن المدرسة معذورة إذا قصرت، وأن المدرسين معذورون كذلك، لأنهم بشر مثلك، ولو أنك دخلت عليهم من هذا الباب الواسع، وعرضت عليهم تقديم ما تقدر على تقديمه من عون لهم وللمدرسة - حسب إمكاناتك النفسية والعقلية والمادية والوقتية جميعًا - لكان خيراً لك ولطفلك.

**إنهم سوف يقدرون لك احترامك لهم وتقدير متاعبهم مع ابنك ومع أقرانه، وسوف ينعكس احترامك لهم على أدائهم، وعلى تعاملهم مع ابنك وزملائه، مما يحولهم جميعًا إلى خلايا نشطة، تضيف إلى المجتمع فى المستقبل.**

وإذا كانت النسبة الغالبةمن الآباء والأمهات تهتم بمسائل التعليم والتحصيل والدرجات، فليكن اهتمامك أنت بالأمور التى تُعتبر فى نظر المدرسين غير فنية، مما لا يوقعك معهم فى حرج، فى الوقت

الذى تعتبر هذه الأمور بالنسبة إلى ابنك وإلى زملائه جميعًا أكثر قيمة وأهمية من أمور التعليم والتحصيل؛ لأنها تتصل مباشرة بالجو الذى يتم فيه التعليم والتحصيل، خاصة النشاط، سواء فى ذلك النشاط الذى يتم فى داخل الصف الدراسى، أو الذى يتم فى إطار المدرسة، أو الذى يتم خارجها، وسواء فى ذلك النشاط العلمى، أو النشاط الرياضى، أو النشاط الاجتماعى، أو النشاط المسرحى، أو النشاط الترفيهى؛ مما ينمى قدرات ابنك وإمكاناته فى مجالات بعينها، مما قد يقوده إلى التفوق والتميز، ومما يقوده إلى الاهتمام بشئون التحصيل أيضًا، فيكون فى كل الحالات إضافة جيدة للأمة، وإضافة لك أيضًا.

ومثل هذا النشاط مما يستدعى الاهتمام فى المدرسة بأمور بعينها لا نلتفت إليه كثيرًا فى بلادنا فى هذا الزمان، وفى مقدمة ذلك المكتبة المدرسية، التى تعتبر فى نظر التعليم المعاصر جُزءًا لا يتجزأ من العملية التعليمية، بوصفها تضم كتبًا ودوريات ومواد علمية، تتصل من قريب أو من بعيد بما يقدم للأطفال والمتعلمين من علوم

ومعارف ومهارات.

والمكتبة المدرسية تحتاج إلى مكان جيد يتسع للكتب، ويتسع للقراءة ويشجع عليها، مثلما تحتاج إلى أجهزة وأدوات ومعدات تحقق الاستفادة مما يُقرأ، ومثلما تحتاج إلى أمناء مكتبات ومساعدين لهم مدرَّبين على تقديم الخدمات المكتبية، ومن ثَم فإنها تحتاج إلى وقفة منك مع الإدارة المدرسية، تكون فيها قادرًا لا على تقديم النقد وحده، ولكن على تقديم العون أيضًا، بالتعاون مع أولياء الأمور الآخرين لصالح ابنك وأبنائهم جميعًا.

وملعب المدرسة الذى أصبحنا نغتاله فى مدارسنا اليوم، أمر لا يقل خطرًا عن المكتبة المدرسية، مع أن اللَّعب عميق الجذور فى ثقافتنا التربوية، ومع أنه لا يكاد كتاب من كتب التربية الإسلامية يخلو من التشديد على أهميته، حتى إن الإمام الغزالى فى كتابه «إحياء علوم الدين» يرى أن منع الصبى من اللعب وإرهاقه بالتعليم، يميت قلبه، ويبطل ذكاءه، وينغص عليه العيش، حتى يطلب الخلاص منه رأسًا.

ومايُقـال عن المكتبة وعن الملعب، يمكن أن يُقـال عن سائر ألوان النشـاط الذى تقـدمه المدرسـة، والذى يمكن أن يكون مُدخـلا لك إليـها، ولا يـحرجك مع المدرسـين ومع إدارة المدرسة، وييـسـر لك التعـامل الذكى معهـا، الذى تكون به قادراً مـعها على تقـديم العون لابنك ولأقرانه، بحـيث يكونون فى النهاية - جـميعًا - إضـافة إلى الأمة تسعَد بها.

# الفصل العاشر
# طفلك إضافة إلى الإنسانية

إذا سلكتَ سبيل الفطرة فى تربية طفلك وتنشئته على النحو الذى وضحناه فى فصول الكتاب السابقة؛ فإنه لن يشب إضافة إليك وإضافة إلى الأمة فقط، وإنما سيشب إضافة إلى الإنسانية أيضًا، على النحو الذى يمكن أن نفهمه من قول النبى ﷺ فيما أخرجه الترمذى عن أبى موسى الأشعرى - رضى الله عنه - :

«ما نحَل والدٌ ولدًا مِن نُحل أفضل من أدب حسن».

ولا تنس أن الذين غيروا وجه الحياة على الأرض من المفكرين والمخترعين والعباقرة لم يولَدوا كذلك، وإنما هم وُلدوا كما وُلد ابنك، ومروا بالمراحل نفسها التى يمر بها من التطور والنمو، وأنهم قد لا يكونون أكثر منه ذكاء، ولكنهم وجدوا راعين لهم، يقودونهم بسلام إلى ما وصلوا إليه بإذن الله، ومن ثَم كانوا إضافة إلى الإنسانية كلها، بما خلفوه وراءهم من بصمة على حياة الناس جميعًا، ومن أجل ذلك كان خلودهم بيننا بأسمائهم وبصماتهم

على الحياة جميعًا، وهو ما نبهنا إلى شىء قريب منه رسولُ الله ﷺ، فيما أخرجه الإمام مسلم عن أبى هريرة - رضى الله عنه - :

«إذا مات ابنُ آدم انقطع عملُه إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو عِلم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له».

**لقد بدأ هؤلاء العباقرة والمخترعون والمفكرون طفولتهم باللعب كما يلعب طفلك، وربما كان توجيه بعضهم من خلال اللعب، وبعضهم من خلال التأمل، وبعضهم من خلال ما لوحظ عليه من انطواء، وبعضهم الرابع من خلال ما لوحظ عليه من انبساط وحركة، وربما كان بعضهم متفوقًا فى الدراسة تفوقًا لفت أنظار أساتذته وذويه، وربما كان بعضهم الآخر عاديا لم يتصور أحد ممن اتصلوا به أن يكون فى الحياة شيئًا مذكورًا، ولكن المهم فى كل حالة من الحالات التى نبغت وتفوقت وبرزت، أنها وجدت من يجد فيها شيئًا يستحق أن يُلتفت إليه، فعمل على تنميته، على النحو الذى ندعوك إلى أن تفعله مع ابنك طوال الكتاب.**

وقد يكون هذا الذى التفت إلى ما يستحق الالتفات إليه فى الطفل الذى صار مخترعًا أو مفكرًا أو لامعًا على أى نحو من

الأنحـاء، والد الطفل أو والـدته أو قـريب من أقـاربه، أو قـريبـة، أو مـدرس من المدرسين، أو أى إنسـان سـاقـه الله إليـه، على نحـو من الأنحاء، ليكون سببًا من أسباب نبوغه، وبالتالى من أسباب استفادة الإنسانية منه، على النحـو الذى استفادت به الإنسانيـة منه، فحاوِلْ أن يأتى الخيرُ دائمًا على يديك حيثما كنت.

لقـد تعـودنا نحن الكبـار عـمـومًا، أن نقلل من شـأن مَن نتـولى أمورهم من الأطفال والشبـاب، سواء كنا آباء أو مدرسين أو عاملين فى مراكز للشباب أو نوادى رياضية، أو غير ذلك من الأماكن التى يوجد فـيها الأطفـال والشــباب، مع أن واجبنا الأسـاسى - حيثـما كنا - هو أن نكتـشف مكامن القـوة فى هؤلاء الأطفـال والشبـاب لننميها، وأن نكتشف نقاط الضعف فيهم لنعالجها.

**وقـد يكون تقلـيلنا من شـأنهم مـرجـعـه أننـا لا نثق فـيـهم وفى قدراتهم، فنقوم نحن بالعمل عنهـم، ناسين أنناعندما نقوم بالعمل عن أبنائنا إنما نعترف بعجزنا نحن الكبار عن قيادتهم إلى ما كنا نحب أن نوصلهم إليه، أكثر مما هو اعتراف بعجز قدراتهم وإمكاناتهم.**

إننى شخـصيا لا أتصـور إنسانًا فـاشلا، وإنما أتصورإنسـانًا فشل

البيـت، وفشلت المدرسـة، وفشل المجتـمع كله فى استـغلال طـاقاته وإمكاناته، بدليل أن كثيـراً ممن يفشلون فى أن يصلوا إلى ما نريدهم أن يصلوا إليه فى التعليم، أو فى العمل، أو فى ألوان النشاط المختلفة، ينجحـون فى الوصول إلى مـا لا نريده نحن، ولكنهم يريدونه هم، ليثبتوا لنا قدرتهم على الفعل، وإمكاناتهم التى أهدرناها.

وقد يكون عدم تحـميلنا إياهم المسئـولية مرجعُه إشفـاقنا عليهم، وتدليلنا لهم، وهو إشفاق يقتل فيهم روح المبادرة وروح المغامرة.

إننا يجب أن نـدفـعـهم إلى العـمل، وندعـهم يـخطئـون، حـتى يتعلمـوا من أخطائهم، وسوف يساعدنـا قُربنا منهم فى البيت، وفى المدرســة، وفى النادى، من تـقليل هـذه الأخطاء، إذا لم يـؤد قُربنا منـهم إلى شل إمـكاناتهـم، وهو قُرب لابد أن يكـون شـديـداً فى البـدايات، وأن يقل كلما مـرت بالصـغيـر السنون، حتى ينمـو نموه الخاص به، الذى يتناسب مع قدراته وإمكاناته، ومع مـا خُلق ميسراً له، وذكاؤنا حـيثما كنا يتـبدّى فى مدى قـدرتنا على الوقوف على هذا الذى يُسِّرَ له الصغير، حتى نقوده بيسر وسهولة إليه.

ولأن طفلك إضافـة إلى الإنسانية كلهـا، فقد بدأت المؤسـسات

الدولية تهتم بالطفولة، وتهتم بالتربية، وتهتم برعاية الموهوبين والمتفوقين، وتقدم الدعم والتأييد للمجتمعات التى ترغب فى النهوض بأطفالها، وتنظم تعليم أبنائها، بعد أن صارت الموهبة تتحول إلى تطور واختراع، لا يستفيد به المخترع وحده، ولا الأمة التى ينتمى إليها وحدها، وإنما تستفيد به الإنسانية جمعاء، إذا كان الاختراع اختراعًا يهدف إلى تحسين الحياة، وإلى تخفيف آلام البشرية، مثلما صار الفقر والجهل والتخلف وباءً يصيب البشرية كلها بآلامه وويلاته، بما يؤدى إليه من تخريب للبيئة المحلية والبيئة العالمية جميعًا.

وإذا أتيح لك أن تقوم بالدور المنوط بك فى الوقوف على ما خُلق ابنك مُيسَّرًا له، وساعدته على أن يكون نافعًا فى الحياة، صالحًا لها، قادرًا على أن يكون مبتكرًا أو مخترعًا، فستكون قد خدمت الإنسانية أيضًا، ويكون لك نصيب كبير من الأجر والثواب من الله – سبحانه –، إن كنتَ قمتَ بهذا الدور إرضاءً لله سبحانه، وشكرًا له، على النحو الذى تم توضيحه فى فصول الكتاب السابقة.

ولو أنك أتحت لابنك فرصة القراءة، وهى مُتاحة فى هذا الزمان

أكثـر مما كانت فى أى زمان مـضى، وفرصة الحـصول على أدوات ومـعـدات، ليس ضـروريا أن تكون مكلّفـة بحـيث ترهقك مـاليـا، ووضعتَها له فى مكان سميته مـعملا، ليس ضروريا أن يكون كبيرًا ولا فخـمًا، ولا أن يؤثر تأثيرًا يُذكر على مـساحة البـيت الذى تقيم معه فيـه، لو أنك أتيح لك ذلك كله أو شىء قريب منه؛ فربما تكون بذلك تفـتح الطريق لابنك لأن يكون بالفـعل إضافـة إلى الإنسانيـة حقـا، فإن معظم المخترعين العظام الذين أضافـوا إلى العلم، وتمكنوا من تغـيـيـر الحـيـاة على الأرض، لم تُتح لهم مـن ذلك كله إلا أقل القليل، كما نستدل من تاريخ حياة كل منهم.

وإذا لم يكن لديك شىء توفره له يساعده على التفوق، فيكفيك أن تباعـد بشىء يفيـده بينه وبين ما لا تحب له؛ فـيكون خيـرًا تؤجر عليـه، تضيف به إلى البـشـرية – أيضًا – فى عصـر صارت الجـريمة والعنف سـمة الحـياة فـيه، وصـارت الجريمة المنظمـة عالميـة التنظيم، عالمية الحركة والفعل والتـأثير، وصارت بالتالى عالمية الأداء، بشكل صارت معـه منافِسة للشركـات العابرة للقارات، فى اعتـمادها على العلم والتكنولوچيا، وفى قدرتها على اكتـشاف المواهب واجتذابها



والدفع السخى لها، حتى صارت ملجأ العبقرية العالمية، التى فشلت المجتمعات فى استغلال إمكاناتها لصالحها.

وفى ضوء كل هذه التغيرات ربما استطعنا فهم خطاب السماء إلى الناس كافة، بعد خطابه إلى المؤمنين فى سورة الحجرات فى قوله تعالى:

﴿ يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهنَّ، ولا تلمِزوا أنفسكم، ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتُبْ فأولئك هم الظالمون* يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه، واتقوا الله إن الله تواب رحيم* يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾

[الحجرات : ١١ – ١٣].

إن تجنيبَ أبنائنا الشر هو خير فى حد ذاته، وتمكينهم من أسباب الخير يكون خيراً مضاعفًا، وشكر الله – سبحانه – ابتداء فى هذا التمكين هو باب رحمة الله – سبحانه – بالمؤمنين من عباده، الذين أسأل الله – سبحانه – أن نكون منهم.

وآخِرِ دعوانا أنِ الحمدُ لله رب العالمين.

# فهرست

| الموضوع | الصفحة |
| --- | --- |